كلام من الذاكرة

منصور محمد الخريجي

مكتبة العبيكان

obeikandl.com

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الخريجي، منصور محمد

كلام جرايد./منصور محمد الخريجي.- الرياض ١٤٢٦هـ

٣٤٣ ص؛ ١٤×٢١سم

ردمك: ٧ - ٨٤٧ - ٤٠ - ٩٩٦٠

١ - المقالات العربية ـ السعودية

أ. العنوان

ديوي ٠٨١,٥٣١ ١٤٢٦ / ٥٨٥٧

ردمك: ٧ - ٨٤٧ - ٤٠ - ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٥٨٥٧ / ١٤٢٦

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م

حقوق الطباعة محفوظة للمؤلف

يطلب من

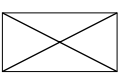

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمـــز ١١٥٩٥

هاتف ٤١٦٠٠١٨ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة الكتاب

ليس القصد من تسجيل ما علق برأسي من ذكريات في حياتي الوظيفية في هذا الجزء الثاني من مذكراتي هو أن أكرر نفسي بما قلته في كتابي ما لم تقله الوظيفة. فذلك كتاب سجلت فيه ما مر بي من أحداث وما رافق حياتي خاصة في بداياتها في القريتين في سوريا من مجريات الأيام والليالي وصروف الدهر مما لم يكن لي في سيرها دور ألعبه بل كنت مجرد رقم بين أرقام تتقاذفها تقلبات الأيام والليالي حسبما هو مقدر لها أن تكون.

أما في هذا الجزء الثاني فسوف يجد القارئ اختلافاً واضحاً في الطرح كما في الموضوع وفي الجزء الأول كنت في معظم الأحيان مراقباً للأحداث أسجلها دون أن يكون لي دور فاعل في مجرياتها كما هو الحال في المراحل الأولى لكل طفولة وسن مبكرة - وحاولت قدر الإمكان أيضاً في ذلك الجزء الأول أن أكون محايداً أسجل المراحل المبكرة من حياتي دون أن أقحم فلسفتي أو قل نظرتي للحياة عامة. سيجد القارئ لهذا الكتاب أن النهج قد تغير عما كان عليه سابقاً وأنه يميل إلى الجدية وبعض الكآبة! حتى عندما أذكر نفسي

بأسلوبي السابق الذي يميل إلى السخرية والذي في مواقع كثيرة من الكتاب الأول أضحك وأحيانا أبكي القارئ، فسرعان ما أنس الأسلوب المرح وأعود إلى الصراحة والتهجم؛ ولا أظن أن أحداً يلومني فأنا ومعي معظم أبناء جيلي والأجيال التي قبلنا أيضاً نعيش في زمن ليس هو أجمل ولا أسهل الأزمنة التي مرت علينا وعلى من عاش قبلنا. والإنسان ما هو إلا ابن زمنه. والله المستعان.

obeikandl.com

أنا وأصدقائي والأخرين

يا الله! ما أسرع الأيام، وما أسرع ما تمضي بنا الحياة.

منذ فترة بسيطة فقط من عمر الزمن كنت شاباً يافعاً تخرجت من الجامعة وعدت من القاهرة مشمراً عن ساعد الجد أسير شامخاً وكأن الدينا خلت من قاطنيها إلا مني، وأنها تنتظر وصولي فقط لأصلاحها.

لم يكن لدي شك أنني سوف أتي بما لم تستطعه الأوائل!

كنت ضمن مجموعة من الشباب تزاملنا سنين عديدة في مراحل السنين الدراسية المختلفة في المملكة حتى أنتهى بنا المطاف في القاهرة.

كانت القاهرة في تلك الأيام، الخمسينيات الميلادية، هي الوجهة التى نقصدها من المملكة للدراسة الجامعية. ألم أذكر في البداية أن الحياة مرت بسرعة البرق وقد أصبحت أنا وأولئك الزملاء كهولاً أو أكبر من الكهول إذ الكهل هو الذي تجاوز الخمسين كما يقول المنجد أما نحن فقد تجاوزنا الخمسين بسنين لا أحرص - ولا أود أن يحرص القارئ - على معرفة عددها، وصلنا القاهرة وكانت لا تزال تعيش أواخر عصورها الذهبية الجميلة. كانت مدينة كأنها حديقة نظيفة

تشق وسطها الشوارع الأنيقة التي تقوم على جوانبها المحلات التجارية الضخمة الفخمة التي تقلد في واجهاتها وفيما تبيع أرقى المحال الباريسية. كانت الشوارع تتلألأ على جوانبها الثريات الكهربائية تحملها أعمدة ضخمة شاهقة، شيء لم نعرفه ولم نعهده اللهم إلا ما كنا نشاهده في الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة.

انتقلت إلى القاهرة من المدينة المنورة التي كنت أسكن فيها مع عائلتي في حارة المحمودية. والمحمودية حي يتكون من مجموعة من الأزقة الترابية الضيقة تبدأ من نهاية المناخة الجنوبية وتنتهي بعد بضع عشرات من الأمتار بحوائط تفصلها عن الطريق المؤدي إلى قباء. كانت تلك الأزقة شديدة الظلام في الليل لدرجة أنك قد تصطدم وأنت تسير فيها بأحد جدران المنازل الصغيرة إذا لم تفتح عينيك جيداً!

لم يكن بيت المدينة المنورة في المحمودية أكبر بكثير من بيت القريتين العتيد. كان حسب المقاييس السائدة في ذلك الوقت - أظنها أنتهت الآن - نصف مخزن لا أكثر. تدخل من الباب لتجد على يسارك جلسة صغيرة عرضها حوالي مترين وطولها ربما ثلاثة أمتار وفي صدر المنزل غرفة كانت هي صالون الاستقبال وأمامها بيت البير. كان يوجد بئر ماء في كل

منزل من تلك المنازل الصغيرة في ذلك الوقت. أما الدور العلوي فكان أيضاً غرفتين: أمامية للجلوس والنوم في الليل والخلفية وتسمى «مؤخر» تخزن فيها حاجيات الأسرة. هذا كان كل البيت الذي سكناه عندما عدنا من القريتين إلى المدينة المنورة. بعض من سمعوا عن كتابي الأول ما لم تقله الوظيفة وقبل أن يقرأوه تساءلوا عما يمكن أن يحكيه «ولد الخريجي» عن نفسه وحياته قبل الوظيفة وهو الذي ينتسب إلى عائلة من أغنى سكان المدينة. ولم يدر بخلدهم أنه ليس بالضرورة أن كل من حمل لقب عائلة يكون بالضرورة فرداً من أغنيائها.

كان أهلي - والدتي وأخي وأخواتي - يذهبون لزيارة جماعتنا آل الخريجي وبدلا من أن يزوروا ويعودوا إلى دارهم كانت الزيارة تستغرق الأسبوع أو أكثر أحياناً، إلا أنا كنت أصر دائماً على العودة إلى البيت في المحمودية كنت أعود بالليل البهيم ولا أكاد، كما ذكرت آنفاً، أرى طريقي في تلك الأزقة الضيقة. كنت أصل البيت وأدخل وأنا أعرف مسبقاً أين سأجد الأشياء التي أريدها. الكبريت والفانوس ثم أحمل فراشي على رأسي وأصعد إلى السطح لأن الوسيلة الوحيدة لإتقاء الحر الشديدة هو النوم على السطوح وإن كانت أشعة الشمس الحارقة توقظنا بسياطها الملتهبة منذ لحظة سطوع الشمس فأعود أحمل فراشي على رأسي كما يفعل كل الذين يلجأون

للسطوح - وكانوا كل الناس - وأسرع إلى ظل الغرفة أكسب ما أستطيع من الوقت قبل موعد الاستقياظ الأخير للذهاب إلى السوق لشراء حاجيات اليوم من طعام وغيره ثم أستعد للذهاب إلى المدرسة.

لقد كانت نقلة كبيرة تلك التي أخذتنا من حوارينا وقرانا من المملكة إلى القاهرة مما جعلنا نؤمن أن مصر هي أم الدنيا فعلاً.

أكرر أمام أصدقائي دائماً أن أجمل أربع سنين في حياتي هي سنين القاهرة. ولطالما لمت نفسي وقسوت على تصرفي المتسرع عندما انهيت الدراسة في أربع سنين فقط. كنت أغبط أن لم أكن أحسد الذين لم ينهوا دراساتهم في أربع سنوات. ولن أتقبل نقداً من أحد على ما أقرره هنا خاصة عندما أذكر من ينتقدون قولي هذا بكيف كانت الرياض في ذلك الزمن البعيد وكم كان عمري يومئذ!

إذا كان للطلاب السعوديين مجتمعين عصرا معيناً يسمونه العصر الذهبي فإن فترة الخمسينات والستينات من القرن الماضي وربما السبعينات أيضاً كانت ذلك العصر الذهبي كان كل الذين ينهون دراساتهم الثانوية يتوجهون مباشرة إلى القاهرة.

كانت القاهرة هي المركز الرئيسي الكبير لابتعاث الطلبة السعوديين بجميع تخصصاتهم. كانت مناطق الدقي والعجوزة

القريبة من جامعة القاهرة تعج بالطلبة وكنت تجد في أغلب العمارات في هاتين المنطقتين ومنطقة العجوزة والمنيل كذلك، تجد شقق يسكنها طلبة سعوديون. وأيام الدراسة على أي حال هي الأسعد في حياة الإنسان - لا هموم ولا مشاكل ولا مسؤليات كالتي عرفناها فيما بعد وناءت بها ظهورنا. كل الذي على الطالب أن يفعله هو أن يحضر جيداً للمحاضرة ويذاكر جيداً. والطالب السعودي حقيقة كان يعيش في بحبوبة قصرت عنها حياته بعد التخرج واستلام المرتب الذي كان يتراوح ما بين ٩٠٠ و١٢٠٠ ريال. كنا في مصر نتسلم ثلاثين جنيهاً شهرياً وهذه الثلاثين لمن لا توجد لديه فكرة عن مستوى الحياة في ذلك الزمن - تجعل منا أغنياء. لقد وجدت أنا شخصياً أنني كنت أعيش في بحبوحة من العيش قصرت أن تعطيني مثلها الألف ومائتين ريال التي جلست أياما أن لم أكن أسابيع وأنا أساوم مسؤولي وزارة المعارف وخاصة وكيل الوزارة آنذاك الشيخ عبدالعزيز آل الشيخ رحمه الله أن أحصل عليها. كنت أتيه أعجاباً بنفسي لأنني خريج لغة إنجليزية التي كانت تلك الأيام عملة نادرة وكلما عرضوا علي منصباً بتسعمائة ريال أرفع حاجبي استنكاراً من أنني لا يمكن أن أنحدر إلى مستوى الذي قبلوا بهذه المرتبة قبلي وأنا خريج اللغة الإنجليزية!. ولكي لا يظن من يقرأ هذا أنني كنت فعلا زاهياً بنفسي أقول أنه لم

يكن هناك زهو ولا يحزنون وأنما المسألة كلها أن زملاء قبلي حصلوا على الدرجة الرابعة ولم أود أن أكون أقل منهم. ولا أدري إلى الآن إن كان الشيخ عبدالعزيز آل الشيخ أقتنع بحيثياتي أم أنه فقط مل من شكلي وهو يراني كل صباح أجلس أنتظره في مكتبه الكبير، أتخذ لنفسي كرسياً بآخر المكتب الواسع قبالة الشيخ حيث كان يراني كلما رفع نظره عن معاملاته. المهم ذات صباح ولج إلى مكتبه وكالعادة كنت انتظره فأشاح بيده لي قائلاً إذهب إلى شئون الموظفين وبإصرار الشاب المندفع بكل الخبرة سألته إن كانت المرتبة الرابعة ورد بإيجاز دون أن ينظر إليّ «رح وبس». وعملت في الدرجة الرابعة، في تلك الأيام كانت المرتبة الأعلى هي الأصغر في التسلسل. يعني الرابعة أعلى من الخامسة وهكذا.

تمر الحياة كالحلم. ما أقصر عمر الإنسان، أو لعله يراه قصيرا عندما يصل إلى مرحلة الشيخوخة التي أمر بها الآن وزملائي الذين كنا ذات يوم وكأنه الأمس نمرح في ردهات كلية الآداب، جامعة القاهرة. كنا نمتلئ حيوية ونشاط وأمال عراض، ولم نكن نفكر أبدا في محدودية الحياة. مثل هذا التفكير يبدأ بعد سن الشباب بسنوات عديدة، ربما بعد الأربعين أو في سن الأربعين تصحو فجأة وتجد أنك وصلت الأربعين من عمرك ، وأن كنت لا تزال في قمة الحياة والقوة

والعطاء إذا كنا نزيد عليها كلمة «العطاء» التي أكرهها. نحن نقول عن بلدنا أنه بلد «معطاء»، كلمة سمجة – ليس لأن البلد «معطاء» كما يقول هؤلاء فهذه نعمة ونحمد الله كثيراً عليها، لكنها سمجة في أننا جميعاً ننتظر هذا البلد، «المعطاء» أن يعطينا شيئاً دون أن نعطيه في المقابل أي شيء. كم واحد منا عندما يدخل غرفته في الليل لينام يسأل نفسه ماذا أعطى بلده وما هي الخدمة التي قدمها لبلده! إن كان هو يحسب مكاسبه فقط من بلده دون مقابل منه فهو ببساطه لا يستحق شرف المواطنة أصلاً.

وعلى أي حال لقد مضي الوقت الذي أستطيع فيه أن أعطى شيئاً لبلدي. فهو الأن يعطيني مرتب التقاعد مكافأة لي على خدمتي في الحكومة طوال أكثر من خمس وأربعين عاما. لقد تقاعدت الآن ولم يعد بإمكاني أن أسدي أي خدمة لبلدي – هذا إن كنت قد أسديت له أي شيء أصلاً عندما كنت على رأس العمل!. ولست هنا بمجال حساب سنوات عملي في الدولة، فهي سنوات مرت كما تمر السنين على أي موظف، أعني لم أكن أقوم بأي عمل خارق أو غير خارق، كنت أعمل ما يراد مني عمله خاصة وكما ذكرت في مكان آخر من هذا الكتاب أنني لم أكن رئيس العمل لأحدث فيه جديداً أو تطويراً. أما عملي الذي يعطيني بعض الرضا عن نفسي فهو الكتب

التي ألفتها - كتابي السيرة الذاتية الذي كان بمقياس نجاح الكتب في العالم العربي العتيد كتاب جيداً ومقروءا، ثم الرواية والكتاب المترجم عن رحلة لمستشرق دانماركي إلى الجزيرة العربية ومجموعة من مقالاتي في الصحف المحلية جمعتها في كتاب حتى لا تضيع. هذا كل ما أنجزته، أما الوظيفة فلم يكن بها أي إنجاز. طبعاً بين يدي هذا الكتاب الذي أقوم بكتابته الآن والذي إذا كنتم الآن تقرأون هذا الكلام أكون قد أنجزته وضممته إلى مكتبتي المتواضعة. هناك شيء آخر بدأته ثم تركته وهو أقرب إلى مسلسل اجتماعي مثل تلك التي تعرض في التلفزيونات العربية في رمضان. ابتدأته فقط ولا أدري إن كان سيرى النور كما يقولون أم يبقى بين أوراقي الكثيرة التي ستأكلها العتة قبل أن تتاح لها فرصة الخروج إلى الهواء الطلق.

لم يبق الآن من القاهرة التي عرفتها في الخمسينات إلا بعض ذكريات متناثرة هنا وهناك، لكن حب القاهرة يبقى ثابتاً قوياً متدفقاً متجدداً. حتى ونحن نسافر إلى مصر ثم نعود وفي تصميمنا أننا قد لا نذهب ثانية. لكننا لا نلبث أن يأخذنا الحنين إلى القاهرة العتيدة. كيف لا وهي ليست فقط مدينة الألف مئذنه بل هي بلد الألف وجه ووجه! لا توجد نهاية لما يمكن أن تفعله وتراه في القاهرة ومصر عموما، والطعم الذي تتميز به هذه المدينة لا يضاهيه طعم آخر في العالم أجمع

هناك أشياء كثيرة تستفز المسافر إلى مصر ألا إننا يمكن أن ندخل ذلك في تصنيف البهارات التي تضاف إلى الطعم فتزيده نكهة.

كثير من الصداقات التي بدأت وامتدت بين شباب جيلنا والذي قبلنا وبعدنا ابتدأت في القاهرة ولا تزال قوية ثابتة. وعلى الرغم من أن كلا منا صارت له حياته ومشاغله ومشاكله إلا إننا عندما نلتقى تختفي فجأة كل الأيام والسنين وتنبعث من جديد الزمالة والصداقة التي ابتدأت في مصر. وأرى أنها مناسبة طيبة أن أذكر بالخير والثناء زميلنا معالي الدكتور أحمد محمد علي على دعوته السنوية في أول أربعاء من كل رمضان والتي يدعو فيها خريجي مدرسة طيبة الثانوية. ولكننا نكتشف أننا جميعا من خريجي القاهرة - وما أكثر المفاجأت التي تأخذنا عندما نتقابل. تخيل أنك لم تر شخص منذ خمسين سنة ثم تراه فجأة أمامك في منزل الدكتور أحمد. كان ذلك الشخص لا يزال في مخيلتك ذلك الشاب المتدفق حيوية والممتلئ حياة، وفجاءة ترى أمامك شيخاً أبيض شعره ووهن عوده وتهدج وهو يحييك وأنت وهو غير متأكدان أن هذا هو فلان - إلى أن يتجرأ أحدكما ويسأل السؤال المنتظر - فلان؟ يا الله كيف الحال يا رجل - وأين دنياك الآن وماذا فعلت بك الأيام؟ الأيام.... أجارنا الله وإياكم من جورها.

أمضيت سنتين في الرياض حيث عينت بعد تخرجي مباشرة مفتشاً للغة الإنجليزية بوزارة المعارف. كانت الوظائف في تلك الأيام سهلة متيسرة وكان المتخرج في ذلك الزمن الجميل يكاد يختار أي وظيفة يريدها حتى ولو لم تكن في مجال تخصصه لأن كل الوزارات والمرافق الحكومية كانت تبحث بل وتنافس مع بعضها البعض لجذب الشباب المتعلم.

عملت سنة واحدة في التفتيش ثم انتقلت إلى جامعة الملك سعود وكانت حديثة العهد لم يمضى على افتتاحها سوى عامين وكنت أنا ضمن المجموعة الثانية من المعيدين وكان من الذين عينوا معي الدكتور منصور الحازمي والدكتور محمد الشامخ، بينما كان الدكتور رضا عبيد والدكتور عزت خطاب أول شخصين سعوديين عينا معيدين في الجامعة. والاثنان زملائي حيث تخرج كل الذين جاء ذكرهم من جامعة القاهرة في عام ١٩٥٨م.

عادة يمكث المعيد سنة واحدة في الجامعة ثم يبتعث - وهكذا سبقنا رضا عبيد وعزت خطاب في عام ١٩٥٩م ثم لحقنا بهم نحن: منصور الحازمي ومحمد الشامخ وأنا في عام ١٩٦٠م.

ذكرت أن الأيام الجميلة انتهت بنهاية الدراسة في مصر ويجدر بي أن أدلل على ما أقول لم تكن الحياة في إنجلترا سمنا وعسلا. فهذه بلاد يغلب علي أهلها الحذر والتخوف من

الأجنبي خاصة إذا لم يكن لون بشرته ناصع البياض. التفرقة العنصرية عند الإنجليز خاصة في ذلك الزمان كانت أشد مما هي مثلا في الولايات المتحدة خاصة قبل ثورة مارتن لوتركنج وزملاؤه من السود الذين سعوا حثيثا وجاهدوا وضحوا كثيرا من أجل حصولهم على المساواه أو ما يشبه المساواه مع الإنسان الأبيض، والأمريكان واضحون في عنصريتهم الموجهه ضد الإنسان الأسود - بينما نجد عنصرية الإنجليز تتخطى العنصرية الأمريكية لتشمل كل الناس الملونين. أي إنسان غير أبيض نقي البياض هو محل شك وخوف منهم. وهذا ليس فقط في عاصمتهم لندن بل في باقي مدنهم وأريافهم. لقد ذهبت في دراستي إلى ليدز وهي بلدة كئيبة باردة لا روح فيها ولا حياة ويعمل معظم أهلها في مناجم الفحم الحجري وصناعة الصلب. ولأن ليدز تقع شمال إنجلترا فإن شتاءها شديد البرودة وقد لا ترى الشمس فيها لأيام أو أسابيع وإذا ظهرت فهي كقرص النحاس لا تعطي ضوءاً ولا دفئاً. أما سكان ليدز كما معظم الإنجليز فإنهم كما ذكرت يتوجسون خيفة وحذرا من الغرباء أصحاب السحن السمراء أو السوداء.

عندما سافرت إلى إنجلترا كانت معي زوجتي. وطبعاً أحتاج إلى سكن. كنت أبحث في الجريدة المحلية عن شقق للإيجار وكان هناك العديد من الشقق المعروضة. لكن ما أن

أذهب إلى العنوان الذي أقصده وتراني أو يراني صاحب المكان إلا ويسرع إلى القول أن الشقة قد أجرت ويسرع بإغلاق الباب في وجهي ووجه زوجتي - هذا على الرغم من أنهم كانوا يؤكدون في المكالمة الهاتفية أن الشقة لا تزال معروضة للإيجار. حتى عندما نصحني أحدهم أن أضع إعلاناً صغيراً أقول فيه أنني مدرس مساعد في الجامعة، وأتاني العديد من الجوابات تذكر كلها أن هناك شققاً خالية فما أن يراني القوم حتى يعلنوا أنه لم تعد لديهم شقة خالية. بل أن بعضهم يسرع بإغلاق باب منزله وعلى وجهه أو وجهها علامات الخوف! لا أدري ماذا سيكون الحال عليه الآن في إنجلترا لو ذهب عربي ليستأجر سكنا في لندن أو غيرها من المدن الإنجليزية!!

أخيراً وجدنا شقة لكنها كانت أشبه ما تكون بكهف. شقة في منطقة كئيبة ومعظم مناطق ليدز كئيبة. كانت في الدور الأرضي من بناية صغيرة قديمة سوداء وغرفها تتميز بعدم التنسيق إذ أن الصالون «الفخم» يأخذ معظم مساحة الشقة ولا يوجد به أكثر من كنبه قديمة وكرسيين. أما المطبخ فهو شبه ممر ضيق وغرفة النوم الوحيدة لا تكاد تتسع لسرير واحد، ولحسن الحظ لم يكن لدينا أطفالاً في ذلك الوقت. لأننا قدمنا إلى إنجلترا بعد زواجنا مباشرة في القاهرة. قلت قبل ذلك أن حياتي في القاهرة كانت كلها سعادة وسعة صدر وصداقات

وكل شيء مرح. وهنا في ليدز عرفت الكآبة. طبعاً مما يخفف الكآبة وجود زوجتي برفقتي ولو أنها كانت هي أيضاً لا تقل كآبة عني وكانت المسكينة قد تركت والدتها وأخواتها وأخواتها في مصر - كانت عائلة عمي - وزوجتي ابنة عمي - تعيش في مصر في ذلك الوقت. وكانت نقلة كبيرة لزوجتي الصغيرة إذ فجأة تركت أهلها وجاءت معي إلى بلد غريب لا يرحب بالإنسان الملون ومن الصعب أن تصادق إنجليزياً حقيقياً إذا كنت في إنجلترا. كانت زوجتي ما أن أغادر الشقة إلى الجامعة إلا وتنخرط في بكاء عميق حزين، تبكي أمها وأخواتها الذين فارقتهم لأول مرة في حياتها. كانت هناك أيضاً مسؤلية البيت والطبخ والقيام بواجبات زوج وحياة جديدة عموماً. لم تكن تدربت جيداً على الطبخ ولذا فقد كنت أعود من الجامعة معظم الأيام لأجد سماء الشقة الذي هو أصلاً ظلام أشد ظلاماً من الدخان المنبعث من الطعام الذي احترق بينما كانت أم نزار - لم تكن أصبحت أم نزار بعد - تقوم بنوبة البكاء اليومية المعتادة. كنت أدخل الشقة وأرتعب من كثافة الدخان ورائحة احتراق الطعام وأشرع أتخبط في الظلام وأزعق على زوجتي ثم أتنفس الصعداء عندما يأتيني صوتها المخنوق وأتأكد أنها لا تزال على قيد الحياة! لحسن حظ زوجتي أنها لم تطل إقامتها في تلك الشقة أو البلد كلها إذ ما لبثت أن

حملت بابنتي البكر وبعد بضعة أشهر عادت إلى مصر لتلد طفلتنا في القاهرة.

يدعي الإنجليز أن قضاءهم عادلاً وأنه من أكثر القضاء في العالم نزاهة. إلا أن لي تجربة مع القضاء الإنجليزي جعلتني أعارض تلك المقولة. فقد ذهبت ذات مرة إلى دكان يؤجر التلفزيونات. - لم يكن بالإمكان في ذلك الوقت والظروف أن يشترى من كان مثلنا تلفزيوناً بدلا من استئجاره وذلك لضيق ذات اليد طبعاً. المهم ذهبت إلى الدكان هناك وجدت أخا سودانياً بسبيل إعادة تلفزيون كان قد استأجره وهو يعيده الآن لأنه مسافرا كما قال. طلب مني أن ادفع فقط مبلغاً بسيطاً إذ قد دفع هو بعض المبلغ المستحق.

أخذت التلفزيون منه وعدت به لشقتي. كان ذلك بالمناسبة في أواخر السنة وكنت أعد للعودة إلى المملكة في الأجازة الصيفية. استخدمت الجهاز فترة بسيطة وأعدته إلى الدكان المستأجر منه. امضيت الأجازة الصيفية وعدت إلى ليدز مع زوجتي وكنا قد بدلنا شقتنا الأولى بشقة أحسن قليلاً. وصلنا ليدز في المساء وفي صباح اليوم التالي وبساعة مبكرة سمعت طرقاً على الباب ولما فتحته وجدت مخبراً يخطرنى بالحضور إلى المحكمة. استغربت حكاية المحكمة، فقد كنت قد أعدت

التلفزيون إلى أصحابه قبل سفري. ذهبت إلى المحكمة وجلست في مقعد مع المتحاكمين الآخرين ولما جاء دوري أخذت مكاناً أشاروا لي عليه وهو مكان وقوف المتهمين، وقام من الناحية الثانية - جانب المدعي - فأنا مدعى عليه، قام محام ودون أن أعرف ما هي القضية أصلاً أخذ يكيل لي الاتهام بأنني أخذت من الشركة تلفزيون وهربت من البلد دون دفع الإيجار، وبعد أن انتهى المحامي من كلامه أردت فقط أن استخبر عن ماهية المسألة إلا أن القاضي أمرني بصرامة إنجليزية أصلية أن أسكت وأن علي أن أدفع كذا وكذا تعويضاً عما لحق بالشركة من أضرار وإذا كان المبلغ كبيراً يمكن لي أن أقسطه. ثم صرفني بإشارة من يده. ويحيا العدل الإنجليزي. أعترف في تلك اللحظة أنني لم أترك كلمة في قاموس الشتائم العالمي إلا كلتها للإنجليز وقضاتهم. إذ كيف سمح ذلك القاضي لنفسه أن يحكم ضدي دون أن يكلف نفسه عناء الاستماع إلى دفاعي عن نفسي أو على الأقل تفسير لما ظنوه احتيال من جانبي. للأسف فهمت بعد الحكم أن الأخ السوداني هو الذي خدعني إذ سلمني التلفزيون عند سفره دون أن يدفع ما عليه للشركة وأكلت أنا المقلب. وعاشت الوحدة العربية.

من جديد

ربما كانت أحسن وأسهل طريقة للكتابة هي أن تكتب ما يخطر على بالك. بمعنى إذا كان لديك أفكاراً كثيرة متزاحمة متسابقة متصارعة يود كل منها أن يكون الأول في رأس قلمك أمسك القلم وابدأ الكتابة ثم انظر ماذا كتبت.

لأن ما كتبت هو قطعاً الفكرة أو الأفكار التي استوت في رأسك وحان قطافها. تماماً مثل ثمار على شجرة فهي لا تنضج بالضرورة في وقت واحد.

والأن ما الذي أريد أن أقوله؟ لاشك أن بعض من وصلوا إلى هذا الحد من القراءة قد بدأوا يتساءلون عما أريد قوله. أنا أعترف هنا أنه لا يوجد لدي موضوع متكامل محدد له بداية ونهاية ووسط أيضاً؛ لا يوجد شيء من ذلك إنما قلت لنفسي أمسك القلم وانتظر لعل الله يفتح عليك بشيء. والمشكلة كما أظن قلت في مكان ما من بعض كتاباتي أنني عندما أخرجت كتابي الأول «ما لم تقله الوظيفة» وصادف قبولا طيباً نسبياً حسب قدرتنا على القراءة في بلادنا، شجعنى ذلك على اتباعه بكتاب آخر وهو ما تم فعلاً وأخرجت روايتي «دروس أضافية»، وهي رواية تصور حياة ثلاث طلاب يسافرون

من الرياض إلى أمريكا لإكمال دراساتهم الجامعية. كان وقت سفرهم هو الخمسينات من القرن العشرين الميلادي. أقصد أن زمن الرواية وأبطالها كان في ذلك الزمن، أما الكتاب نفسه فقد ألفته في أواخر القرن الماضي يعني في التسعينات. حاولت تصوري حياة ثلاث طلاب يأتون من رياض الخمسينات ومن بيئة منعزلة عن العالم ومجتمع لا يكاد يدرك أن وراء تلال الصحراء الممتدة أمامه يوجد عالم واسع غريب مجهول. تركوا رياضهم الناعسة ذات الشوارع الترابية الضيقة ومنازلها الطينية وأناسها المنطوون على أنفسهم الذين يأوون إلى مخادعهم بعد صلاة العشاء وانتقلوا فجأة إلى أمريكا!

ليس هذا مكان تلخيص روايتي لكنني ذكرت الزمن والبيئة التي عاشها أولئك الشباب الصغار في بلدهم ثم حاولت تصوير الصدمة الحضارية التي جابهتهم في أقصى العالم الغربي. طبعاً كان كل شيء جديدا ومختلفاً وقد حاولت تصوير ردود أفعال الثلاثة المتباينة حسب اختلاف طبعائهم وأمزجتهم وتربيتهم. ولكي أكون كاتباً صادقاً وواقعياً رحت أصور أنماط سلوكهم في البلد الذي وجدوا أنفسهم فيه وكيف كان تعامل كل منهم مع الواقع الجديد. وحيث أن أبطال روايتي ليسوا إلا من بني البشر فيهم ضعف البشر وقوة البشر وعواطف البشر فقد رحت ألاحقهم في حياتهم اليومية وهم يدرسون ويأكلون

ويشربون ويتحدثون ويتخاصمون ويفرحون ويحزنون ويأملون ويتمنون ويحبون! نعم وهم يحبون وإلا كيف أكون صادقاً إذا لم أصور تفاعلاتهم مع حياتهم الجديدة عندما وجدوا أنفسهم فجأة في بحر متلاطم من الناس رجالاً ونساءً وقد رفعت الحواجز بين الجنسين واختلط الحابل بالنابل وانفتحت أبواب الحرية الشخصية على مصاريعها. وراح كل حي من حولهم يعبر عن شخصيته بالطريقة التي تروق له حسب مفهوم المجتمع الذي استضافهم والذي يكفل الحرية الشخصية لمن يعيشون فيه إذا لم يتعد على القوانين التي تحكم علاقة الأفراد ببعضهم البعض وتحكم علاقتهم بالحكم.

سهرت ليال عديدة أعمل في روايتي، أسهر مع أبطالها وأتفاعل معهم أشجع بعض أفعالهم وأقرعهم على بعضها لكني حاولت أن أكون محايدا أصف ما يفعلون وأتبعهم في حياتهم اليومية في البيت وفي الجامعة وفي ردهات الفصول ونوادي الجامعة محاولاً طوال الوقت أن لا أدعهم يغيبون عن عيني. ولكي لا أطيل الكلام عن شيء مضى أختصر فأقول: أن الرواية لم يسمح لها بالنشر في المملكة. راجعنا المسؤولين في وزارة الإعلام - أسمها الأن الثقافة والإعلام - واعتذروا عن النشر لأنها كما قالوا بها أشياء لا يصح أن تكتب أو تقال.

نشرتها في بيروت ثم عدت وعرضت أن يسمح لها بدخول بلدها للتوزيع وأجابني وزير الإعلام شخصياً إنهم سوف يسمحون ببيعها في المملكة. أحضرت من نسخها حوالي ستمائة نسخة عن طريق مكتبة العبيكان لكن الوزارة الموقرة عادت وتراجعت عن وعدها ولم تسمح ببيعها، ولا تزال نسخها مكدسة في مخازن مكتبة العبيكان وبين كل فترة وفترة أطلب بعضا من نسخها أقدمها لبعض من يطلبها.

لقد قرأ روايتي بعض الأكاديميين وبعض الكتاب وكتب بعضهم منها، لا أدري إلى هذه اللحظة إن كان ما كتب عنها كان مجاملة لي لأن الرواية لا تستحق القراءة أم أن من كتب عنها كان صادقاً في دراسته ونقده. أعرف معرفة اليقين أن بعض من كتبوا عنها فعلوا ذلك مجاملة لي أما كيف عرفت ذلك فهذا أمر أحتفظ فيه لنفسي.

هناك دارس كتب عن الرواية لم أعد أذكر أسمه وإنما أذكر أنني قرأت ما كتبه عدة مرات ولم أفهم كلمة واحدة مما قاله مما جعلني أعتقد أن وزارة الإعلام كان لها العذر في رفض روايتي. ولكن لكي لا أظلم نفسي أضيف أن الناقد الذي لم أفهمه ينتمي ربما إلى ما يسمى مدرسة النقد الحديث الذي يبدو أن أهم ما يميزه هو أن يكون غامضاً عصيا على الفهم! والغريب أن هذا الاتجاه النقدي له الآن رجاله الذين يشاروا

لهم بالبنان كما يقولون، وأصبحوا يحصلون على الجوائز والتكريم وكلما أوغلوا في الغموض كلما أزدادت رهبة القراء منهم وربما إعجابهم.

ذات مرة حضر واحد من نقاد الحداثة هؤلاء في بيت أحد الأصدقاء وجاءت سيرة كتابي «السيرة الذاتية» فأرسلت من أحضر لي نسخاً منه ووزعتها على الحاضرين وكان بعضهم من دول عربية أخرى. أخذ الجميع الكتب وشكروني طبعاً كما ينبغي لكل ذي عقل سليم.

إلا أن أخينا هذا بدا عليه الإمتعاض وكأني أسأت إليه بإهدائي كتابي له. تناول الكتاب «بدون نفس» ولم يقل كلمة واحدة. لا أزال أندم إلى الآن على أنني لم استرجع الكتاب منه في تلك اللحظة نفسها.

ولكن معروف عنا نحن أهل هذه البلاد أننا نفعل الطيب حتى لو نرميه في البحر كما يقول المثل. ولماذا أندم على إعطائي ذلك الرجل كتابي وهو على كل حال لا شك أنه عاني وتعذب في قراءته لأنه مفهوم وسهل القراءة وأسلوبي هو السهل الممتنع كما قال لي كثير من كتبوا عنه.

يقودني هذا الكلام إلى مسألة توزيع الكتب أو إعطاء الكتب للأصدقاء والمعارف وغيرهم. لا يسألك أحد أبداً عن

المكتبة التي تبيع كتابك بل كلهم يطلبون الكتاب بدون مقابل. إن كتابي السيرة الذاتية مقروء جداً وهذا طبعاً بشهادة كل الذين قرءوه وبعضهم قرأه في ليلة واحدة وكثير من قراءه ذكروا أنهم كانوا يتخاصمون مع زوجاتهم أيهم يقرأه أولاً. لقد كتب الأخ الدكتور عزت خطاب عن كتابي ووصفه حسب التعبير الإنجليزي أنه Best Seller يعني من أحسن الكتب جميعاً أو أكثرها رواجاً إن كنا نريد الصيغة العربية. ولكن أين هي عائدات الكتاب؟ لم أر منها شيئاً فكما قالت ذهبت معظم نسخه إهداء وهذا طبع الناس هنا وأنا بالمناسبة لا أشتكي بل هي حقيقة أقولها. ولا أنكر أنني كنت أحب لو كان الأصحاب وباقي الناس سألوني أين يباع الكتاب.

قال الدكتور عزت خطاب وغيره ممن يعرفونني وممن كتبوا عن كتابي السيرة الذاتية أنني أكتب كما أتكلم بنفس البساطة التي أتكلم فيها ومعظم من قرأوا كتابي كونوا نفس الفكرة – لا تكلف ولا تقعر ولا كلمات تحتاج لشرح المنجد ولا أفكاراً غامضة فلسفيه ينوء بها كاهل القارئ. وبالمناسبة معظم من يلجأون إلى الكتابة الغامضة والمفردات الغريبة والتعبيرات الأشد غرابة، معظمهم لا يستمرون بنفس النمط في أسلوبهم بل هم يتقنون بعض التعابير اقتبسوها بشكل ما وعندما تفرغ جعبتهم بعد جملة أو اثنتين يعودون إلى الأسلوب المفهوم. ما

علينا، كنت أقول أنني وبشهادة قراءي أكتب كلاما سهلاً عادياً يحاكي كلامي المحكي. وهذا شيء أحمد الله عليه. ثم بدون ادعاء كاذب أو تواضع مصطنع أعلن أن هذا النوع من المقال هو ما أتقنه. ورحم الله امرءاً أقر بإمكاناته.

نعود مرة أخرى إلى موضوعنا. الحقيقة المؤلمة أنه لا يوجد لدي موضوع. فأنا قررت أن يكون هذا الكتاب تداعي لأفكار ورصد لمحطات في حياتي مما يمكن اعتباره تكملة للجزء الأول أوجزءاً ثانياً له.

أحاول هنا أن أعلو فوق أحداث حياتي أشاهدها وأتأملها بعين الناقد ثم أقول عنها ما أراه مناسباً وبدرجة ما أستطيع من تجرد. وأرجو كل الرجاء ألا أكون أضيع وقتي ووقت القارئ إن كان ما أنوي قوله هو من قبيل المعروف والمكرر أو الذي لا يحتاجه أحد.

ولا أظنني أحتاج إلى اعتذار عن اقتحام مثل هذا المجال الذي حددته والذي إن نظر إليه بعين الرضا - بعد أن يصبح حقيقة طبعاً - امتدح وأشيد به وإن لم يكن كذلك فإن من أسهل الأمور أن يقال أن الكتاب خال من المادة ولا يقول شيئاً. وهذا أيضاً صحيح باعتبار أن مثل كتابي كما سترون يمكن أن يقال عنه أنه يحوي كل شيء أو لا يحوي شيئاً إطلاقاً - وهذا بحسب نظرة القارئ.

ثم أنني كتبت كما ذكرت رواية وأرجو أن لا يعتبر هذا إعلاناً مني عنها - ولم تجد الرواج الذي رجوته، تبقى الكتابة اليومية أو الأسبوعية في الصحف العابرة. وقد جربت ذلك أيضاً، وحيث أنني من ذوي الدم الحار ولما كنت تعرضت لبعض القضايا الإجتماعية والبيئية وغيرها ولم أجد صدى كما كنت أتوقع فقد قررت أن أقلع عن الكتابة المنتظمة. ناهيك أيضاً أن عليك أن تظل تفكر ليل نهار في موضوع المقالة القادمة. وفي الحقيقة أنني معجب أشد الإعجاب بأولئك الذي يواظبون على الكتابة في الصحف وخاصة الذين يكتبون أعمدة يومية فهؤلاء في نظري عباقرة من نوع نادر؛ خاصة أولئك الذي يكتبون وتكون لكتاباتهم معاني. إذ أن البعض وللأسف إذا لم يجد شيئاً يقوله يخترع قضية لا وجود لها ثم يروح يناقشها ويدرسها وقد يجد لها العلاج أيضاً.

ورحم الله امرءاً عرف أين تكمن قوته وفي أي المجالات ينجز. وهذا للأسف الشديد مبدأ لا نتبعه كثيراً في بلدنا. فنحن إما أن نضع الناس في أسلوب عشوائي في مواقع ليسوا مؤهلين للقيام بها ولا تناسب أحياناً حتى اختصاصاتهم إن كانوا ممن حصلوا على نصيب من التعليم، أو أنهم غير مؤهلين بحسب أمزجتهم وميولهم واستعداداتهم النفسية للقيام بها. وحبذا لو كان لدينا هيئات مختصة في مدارسنا وجامعاتنا

تراقب وتدرس ميول طلابنا وتوجههم الوجهات الصحيحة إلى الأعمال التي أظهروا ميلا وحبا لها أثناء دراساتهم. وهذا ما يدل عليه قول الرجل المناسب في المكان المناسب. وكم من رجل غير مناسب يكلف بعمل غير مناسب، وحيث أن الله تعالى قد خلق هذا الكون وقدره ورتبه على أعلى درجات من الإتقان والترتيب وجعل كل مخلوق لما يسر له فما أحرانا أن نتعلم حتى من الحيوانات الأعجمية إن كانت أعجزتنا الحيل. انظر مثلاً إلى مختلف الحيوانات تجد أن كل فصيلة منها جعلت لها قدرات خاصة تتميز بها بل وتعلن عنها كلما اضطرتها المواقف، فالأسد والحيوانات المفترسة كلها تعرف أين تكمن قوتها وقدرتها وتعلن عنها عندما يصبح ذلك ضرورة. فالأسود تكشر عن أنيابها الحادة وتفرد مخالبها عندما تهاجم فريسة أو عندما تجد أنها مهددة؛ فهي تعرف أين تكمن قوتها.

أما الخيول مثلاً والحمير فهي إذا هددت دارت مؤخرتها لتذر المهاجم أو المهدد بالهجوم إن سلاحها يكمن في حوافرها وهي تحسن استخدامها عند اللزوم. وذوات القرون تلجأ لاستخدامها عندما يتهددها الخطر، وتحني رؤسها لتظهر قرونها لمن لم يكن قد تنبه إلى سلاحها ذلك.

ليس الغرض من هذا الكتاب هو الخوض فيما لا يجوز الخوض فيه، وسأجتهد في انتقاء الكلام المباح الذي أرجو أن

يجد لدى القارئ القبول الحسن وإلا فسيبقى كتابي هذا عديم الطعم والرائحة تماماً مثل حاستي التذوق والشم اللتان حرمت منهما منذ بضع سنين.

وجدت نفسي بدون مقدمات بالديوان الملكي. ولا أريد أن أكرر ما قلته في سيرتي الذاتية وإن كان لابد وأن أذكر من لم يقرأ كتابي الأول أن الديوان كان يبحث عن مترجم للملك فيصل رحمه الله ووجدوني في جامعة الملك سعود بعد عودتي من أمريكا وتعييني مدرساً للغة الإنجليزية بكلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية.

مكثت فترة من الوقت أعطي الدروس في اللغة والأدب الإنجليزي لطلابي في الجامعة، وعندما يحتاجني الديوان للترجمة أذهب هناك وأقوم بالعمل. ثم نقلت خدماتي إلى الديوان الملكي وكان ذلك في عام ١٣٧٨هـ. أمضيت ما لا يقل عن سبع سنوات أعمل مترجماً فقط وكنت بذلك سعيداً إذ لم يكن لي منافساً اللهم إلا من بعض المسئولين من الحضور الذين كانوا يصرون على أن يظهروا أنهم متمكنون من اللغة الإنجليزية والترجمة أكثر من تمكني منها. وليت الأمر اقتصر على ذلك بل بدأ التنافس الشرس فيما بعد، بعد أن رقيت إلى وكيل رئيس المراسم وتركت الترجمة كلياً أو جزئياً. وليس من

المستغرب أن يحدث تنافساً بين الأشخاص ذوي العمل الواحد؛ من الطبيعي أن يجتهد كل موظف ليظهر لرئيسه أنه الأجدر بالثقة والأقدر على القيام بالعمل بما يرضي الرئيس. ويبدو أنني لا أتقن فن المنافسة ولا التزاحم على الظهور في الصور عندما لا يكن لدي مهمة مباشرة تتطلب وجودي قريباً من الحدث، ولأنني أيضاً أكاديمي والأكاديميون فاشلون عموماً عندما يبتعدون عن جو الكتب والأبحاث - يطلق عليهم ديدان الكتب -! وعلى أي حال فلقد كنت دوماً قانعاً بما أنا فيه وكنت أبتعد قدر الإمكان عن التناحر الذي يتميز به العاملون لدى السلطة العليا. لقد بقيت قلباً وقالباً أكاديمياً في مواجهة الحياة الوظيفية في مكان مثل ديوان. والديوان كما عرفتم عالم شاسع يعج بالرجال من كل المشارب والأهواء. ولكي تستطيع العيش والتعايش مع هذا العالم يجب أن تكون غريزة البقاء لديك قوية. هذا إذا كنت تسعى للتقدم والتميز. وأنا كما قلت لا أتحلى بكمية وافرة من غريزة المنافسة والتزاحم والتسابق على نيل الحظوة عند أصحاب الشأن. ولا أشك أن ما وجدته في مكان عملي هو أيضاً صحيح في كل ميدان عمل. ليس من الضروري أن تكون المنافسة شريفة لا تبغي إلا مصلحة العمل وقبل ذلك وجه الله تعالى؛ ولا أشك إلا أن بعض الناس يهون لديهم التمادي في الخطأ والفوضى من أن يأخذ النصيحة

والتوجيه الصحيح من مرؤس لديه. إن غريزة البقاء والحفاظ على المركز هي هدف أولئك الناس وليذهب كل شيء آخر إلى الجحيم. سبق وأن قلت ولا زلت أقول أنه يجب في كل دائرة حكومية أن يكون هناك تصنيف للأعمال وأن يعرف مثلاً الأشخاص الذين يأتون بعد رئيس العمل، أن يعرف كل منهم ما هي حقوق وظيفته وما عليه من واجبات وأن لا تترك الأمور لرغبة أو مزاج رئيس العمل يمنح الصلاحيات كما يبدو له وحسب صلته بالأشخاص الذين يعملون تحت أمرته. أن تكدس العمل كله في يد شخص واحد هو مركزية ممقوته يجب التخلص منها.

وأنا سبق لي أن سمعت من يقول عني أنني طيب وابن حلال. ومع ما في هذين الوصفين من مديح في مظهره فأنا أعرف جيداً أنها تقال عن الشخص الذي يتعامل مع الدنيا ومع الناس وكأنهما خاليتان من العيوب والنواقص. وفي حقيقة الأمر لقد أصبحت كلمة فلان طيب أشبه ما تكون بسبه وأن مبطتة. لقد تغيرت المفاهيم في عصرنا هذا وأصبحت تسمع كلمات مثل «إن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب». ولقد صرنا الأن فعلاً محاطين بذئاب من كل نوع. لقد تعلمنا منذ الصغر ما كنا نقرأ عنه في كتب القراءة عن الأخلاق الفاضلة والشيم النبيلة والنفوس السامية والسلوك الفاضل - وويل لمن صدق شيئاً من

هذه الفضائل الخيالية، ومن يدعي أنه يستغرب قولي هذا فإنني أدعوه إن يفكر قليلاً قبل أن يرمي بالكتاب جانباً ويسرح بخياله محاولاً أن يتذكر كم من معارفه أو غير معارفه ممن ينطبق عليهم وصف فلان طيب وابن حلال، سيجد أنهم قليلون أو غير موجودين. ثم يفكر في الآخرين ويقارن بين أعمالهم وثرواتهم ثم يحكم علي النتيجة وأغلب الظن أنه لن يفاجأ بما يجده بل قد لا يثير لديه أي غرابة. لقد تعودنا العيش مع أناس ممن لا هم لهم إلا الصراع المستميت على جمع ثروات طائلة وبأي الطرق. لم يعد هذا يثير أي غرابة. تماماً مثل حكاية سلوك سائقي السيارات في بلادنا. لقد أصبح الخطأ هو الصواب وهو المأخوذ به. يأتيك سائق من أقصى يمينك ويتجه إلى اليسار أو حتي يقوم بما يسمى UTURN بالإنجليزية ومعناها - الدوران الكامل إلى الخلف - وعلى كل الآخرين أن يعطوه أفضلية الطريق وأن لم يفعلوا فلربما يسمعو منه ما لا يسرهم.

طبعاً لا أقصد فيما أقول أن كل الناس هم على هذه الشاكلة أو أنه لم يعد هناك رجال أخيار في الدنيا - فهذا ضد طبيعة الأشياء وضد طبيعة البشر، لكن الذي يحز في كل نفس سوية هو أن الأخيار قد أصبحوا أقلية - وأسرع لأقول أن الذين لا يجدون أمامهم شيئاً يسطون عليه هم خارج المعادلة.

يسألني بعض الإخوان أحيانا نصف جادين عن مقدار ثروتي التي كونتها طيلة حياتي الوظيفية. يحرجني السؤال ولكن عندما لا يصدقون أنه لا توجد لدي ثروة أشرح بما يشبه الاعتذار أن دخلي من الوظيفة يكفي لمعيشة مريحة وأنني لا أتقن عملاً آخر يدر عليّ ثروة.

لقد طالما فكرت بالحال الذي آل إليه حال المسلمين في العالم والعرب منهم خاصة وهم الذين شرفهم الله تعالى بحمل رسالته السماوية وبعث خاتم أنبيائه منهم. لماذا وصلنا إلى هذا المستوى المتدني في جميع المجالات. لماذا هنا على باقي شعوب العالم وأصبحنا مضرب المثل في التخلف والجهل وقلة الحيلة. وهل نحن العرب غير قادرين مثلاً على التطور والإصلاح والخروج من الكبوة التي طالت وحطمت آمالنا وطموحاتنا وكسرت كبرياءنا وجمدت حركتنا. الجواب على الاستفهام الأخير هو بالنفي طبعاً لأن العرب أثبتوا في الماضي قدرتهم على بناء حضارة وامبراطورية وهم الذين نشروا بقيادة رسولهم صلى الله عليه وسلم الإسلام في العالم. ولكن لماذا خمدت تلك الجذوة التي كانت تشتعل في أفئدتهم وتقودهم إلى المعالي. لا أنس عندما جاء رئيس وزراء ماليزيا السيد مهايتر محمد لاستلام جائزة خدمة الإسلام التي منحته أياها مؤسسة الملك فيصل الخيرية – أقول لا أنس كلمة قالها أثناء إلقاء كلمته

عندما تسلم جائزته. لقد قال: «عندما وصلنا المسلمون الأوائل أسرعنا باعتناق الإسلام لأننا وجدنا بين ظهرانينا رجالاً تركوا متاع الدنيا وراء ظهورهم، رجالاً أشداء شرفاء شديدي التمسك بعقيدتهم الصافية. لم يظلموا أحداً ولم يعتدوا على أحد بل كان همهم نشر عقيدة التوحيد الخالصة بالكلمة الطيبة والهدف المتجرد إلا من نيل رضا الخالق سبحانه وتعالى ولم نتردد في اعتناق الإسلام لأننا كنا نود أن نصبح مثلهم. أما لو كان مجئ المسلمين إلى بلادنا تأخر إلى أيامنا هذه فلن نكون قد اعتنقنا الإسلام». وقد قال الرجل ذلك وهو يشعر بالحسرة على ما آل إليه حال المسلمين. لقد ذهب جوهر الإسلام وبقيت منه طقوس تؤديها الأجيال المتتابعة تقليداً لما رؤا عليه آباؤهم. ولكن كيف يمكننا تغيير ذلك. قطعاً هناك صحوة إسلامية الآن تعم العالم الإسلامي ولكنني لا أظنها هي الصحوة المطلوبة. ولننظر فقط إلى ما أنتجته هذه الصحوة ولنتذكر الشباب اليافع الذي غرر بهم باسم الصحوة وباسم الدين وانتشروا في أصقاع الأرض ينشرون الخراب والدمار. لم تكن تلك الصحوة خالصة لوجه الله تعالى أو لم يكن بعض من برزوا في أيامنا هذه يعملون لصالح العقيدة والدين الصحيح بل هم ركبوا الموجة تدفعهم أهواء بعيدة كل البعد عن مسار التصحيح. كان هدفهم التسلط على حكوماتهم الشرعية واستجلاب الحكم لأنفسهم

وراحوا يدفعون باتباعهم باسم الدين لاغتيال كل إنسان يقف في طريق أطماعهم ويكشف حقيقة أهدافهم. لقد أتقنوا غسيل أمخاخ أتباعهم من الشباب اليافع وأرسلوهم في أنحاء العالم يقتلون ويخربون ويثيرون الذعر والدمار إينما حلوا.

عمل الشباب السعوديون

لماذا أصبح منظر شاب يعمل بيديه بمهنة شريفة حرة يثير اهتمام الصحف لدرجة أن أحداها صورت شابا سعودياً وهو مبطحاً تحت سيارة يغير زيتها، وكأن المنظر آت من عالم آخر، وكأن السعودي أكبر من أن يعمل عملاً مثل تغيير زيت السيارة. كيف وصلنا بسرعة إلى مثل هذه المفاهيم التي امتنعت ولعقود طالت أن تعترف بالواقع وتتساير مع شئون الحياة. هل السعودي خلق من طينة غير طينة بقية البشر؟ وهل إذا غير زيت سيارة وغير إطار سيارة وعمل ميكانيكيا، هل هذا يثير الغرابة؟ إذا كان ذلك كذلك فما هو العمل الذي يناسب الشاب السعودي؟ وهل تلام صحافتنا التي تركت الحرية فيها لمحررين ربما لم يهضموا العمل الصحفي بل وليس لديهم حظاً كبيراً من الوعي العام ولا يحاسبوا على ما يكتبون طالما هم تجنبوا بعض الأمور التي لا يشجعون على الخوض فيها. لقد تركت رئاسات التحرير لهم الحبل على الغارب يختبرون في الصحافة

مهاراتهم البدائية ثم يأتي أحدهم ويصور لنا شاباً يعمل تحت سيارة ويرى أنه خبر يستحق الكتابة عنه!.

إن الكلمة المكتوبة قد تكون أشد ضرراً من الرصاصة إذا هي قيلت في غير مكانها ولو كان ذلك بكل حسن نية. ولا أقصد في كل هذا أن أجعل المسألة وكأنها ذنب كبير جنته الصحيفة أو محررها، وكان يكفي أن يذكر المحرر أن الشباب السعودي بدأ يتجه إلى الأعمال المهنية وأن هناك كثيرون مثل ذلك الشاب أخذوا نفس الطريق ونجحوا وعندها قد يكون أثر الصورة والمقالة أكثر فعالية من كلمات الإعجاب والمديح التي كابتها الصحيفة لشاب كان يقوم بعمل عادي يقوم به آلاف الوافدين من الشباب ويجنون من ورائه أموالاً طائلة.

هناك أمر آخر تطالعنا به صحافتنا بين حين وآخر، وهو نشر صور وحكايات عن شباب قاموا باختراعات أو حسنوا من أداء مخترعات حديثة موجودة. لكن للأسف أيضاً لا تتعدى المسألة النشر عن المخترع الجديد ولا نعد نسمع عنه شيئاً. حبذا لو تشكل هيئة ما من بعض الخبراء والعقلاء على أن يكونوا من الغيورين على مصلحة البلاد وممن ليس لهم مصلحة معينة في ما يدرسون ويبحثون من جدوى لمثل تلك الأفكار والمخترعات والخروج بها من فوق الورق إلى عالم

الواقع. لأن أي شخص يستورد مثلاً سيارات لا يسعده أن يأتيه شخص آخر نكرة يعلن أن بإمكانه تطوير محرك سيارة ليستهلك من الوقود نصف ما يستهلك المحرك الذي يأتي من بلد المصنع. ربما كان ضرب المثل بالسيارة غير دقيق لأن إيجاد محرك بديل على أيدي شباب من هذه البلاد قد يكون ما زال مبكراً ولكن هناك أمثلة أخرى يمكن الاستشهاد بها مثل كل الصناعات التقليدية التي اندثرت على أثر هجمة المستورد. لو كان هناك من البداية نقابات للصناعات التي كانت يوماً تقليدية ولو كان هناك بعض الحماية لها ولو استعانت تلك الصناعات بما يوجد في العالم اليوم معه تقنيات عالية لكان حالها اليوم أحسن كثيراً مما هي عليه الآن. لقد اندثرت فعلاً معظم الصناعات الوطنية التي كنا نعرفها في بلادنا وأصبحت جزءاً من التراث.

نحن العرب وأقصد عرب هذه الأيام نحطم الحلم، ما معنى هذا؟ معناه أن طريق التقدم والتطور، طريق الانتقال من حال إلى حال يبدأ بفكرة. هكذا حكى لنا القدماء وهكذا قرأنا في الكتب. أن من طبيعة الإنسان أن يحلم - وأقصد بالحلم هنا كما هو واضح كل التطلعات والآمال التي نفكر ببلوغها عندما نترك العنان لخيالنا أن يسمو فوق واقعنا المادي. تحلم بأنك تطير مثل الطيور وتحلم بالقضاء على الأمراض وتحلم

بالقضاء على الفقر وتحلم بأن تقطع المسافات بين نقطة وأخرى بأسرع مما هو واقع الحال، كل التطور الذي حققه الجنس البشري بدأ حلما. عندما فكر.. أن يتنقل من مكان إلى مكان بأسرع مما يستطيعه الحصان أو العربة التي تجرها الأحصنة اخترع السيارة. كانت بدائية في البداية ثم تطورت. وعندما كان الأخوان رايت يتطلعون إلى السماء ويرون الطيور تحلق في الفضاء صمموا على صنع آلة تطير بالإنسان. أول طائرة صنعوها استطاعت أن تحلق لمسافة لا تزيد على طول الطيارة البوينج العملاقة ٧٤٧ التي أصبحت الآن شيئاً مألوفاً لا تثير الفضول. ولم يقف الإنسان عندما وصل إليه من علوم وفنون واختراعات أصبحت لا تدهشنا الآن. لم يبق أمام الإنسان الآن إلا الوصول إلى الكواكب الأخرى وها هو قد بدأ بالوصول إلى القمر وخياله يلح عليه في الخروج لما وراء المجموعة الشمسية التي نحن جزءاً ضئيلاً جداً منها.

ولكن أين نحن العرب من كل تقنية العصر الحديث؟ إننا أمة مستهلكة فقط؛ فنحن نستورد ما يصنعه غيرنا ولا نساهم في تطور العالم بأي شيء ذي بال. نحن جميعاً أعني الأمة العربية نستورد كل شيء ولذا فنحن عالة على الآخرين فلو منعت عنا مثلاً وسائل المواصلات الحديثة التي اعدتنا عليها بكل آلياتها واختراعاتها لرجعنا إلى حياة القرون الوسطى.

طبعاً حدوث مثل هذا بعيد الاحتمال طالما نستطيع شراء التطور ولكن نحن للأسف لا نجد حرجاً عندما يصنفوننا مع الأمم المتخلفة.

قيل كلام كثير وكتب كلام كثير عن العقل العربي، والكسل العربي وميل العربي عموماً إلى التواكل والمقدرة على تقبل ما تأتي به الصدف دون محاولة لتغييره. وقد يكون رد ذلك عند البعض أن الله قدر الأرزاق والآجال ونمط الحياة وكل ما يتعلق بالمخلوق من لحظة تكوينه. وهذا فيه خطأ كبير وتواكل نهى عنه الدين الحنيف والآيات القرآنية والأحاديث النبوية كثيرة في الحث على العمل والسعي خلف الرزق. قال تعالى: ﴿**فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ**﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أطلب العلم ولو في الصين»، «وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» وطلب العلم طبعاً ليس للمباهاة ولكن للاستخدام فيما يعود على صاحبه بالخير والنفع ولا أحتاج إلى دلائل للتأكيد على أن الإنسان خلق ووضع على هذه الأرض ليعمرها ولو كان الهدف غير ذلك لا ندثر الجنس البشري. وقد قال كثير من العرب أنفسهم «أن أمة لا تأكل مما تزرع ولا تلبس مما تحيك لا تستحق الحياة». لقد ظهر من بين العرب أنفسهم من يقول: إن العربي ماهر جداً في خداع نفسه. فهو يحكي فقط ويظل يحكي ويحكي حتى يصدق نفسه وحتى يظن على

الأقل أن الكلام يغنى عن العمل. قال عبدالله القصيمي أن العرب ظاهرة صوتية ومن يرى حال العرب اليوم لا يشك أن القصيمي نطق بالحقيقة. عندما حاربت مصر إسرائيل في عام ١٩٦٧ ووقفت معها بعض الدول العربية الأخرى كان صوت المذيعين يلعلع ويفاخر بقوة السلاح والقوات الضاربة والصواريخ والطائرات حتى ظن باقي العرب أن إسرائيل لن تصمد يوما واحداً. لقد تساقطت وقتها طائرات إسرائيل مثل أوراق الخريف ولكن بالكلام طبعاً وما حصل أن الدولة الصهيونية انتصرت انتصاراً كاسحاً على العرب ما زالوا يعانون منه إلى اليوم وإلى ما شاء الله.

وكما حدث في مصر طلع على العرب حاكم عربي آخر هو صدام حسين، وراح بكل غبائه وعنجهيته يفاخر بجيشه وتقدمه التكنولوجي ويهدد إسرائيل بحرق نصفها - لقد تواضع قليلاً ولم يقل كلها - حتى صدقه بعض العرب. ولكن بدلاً من أن يحرك جيشه نحو إسرائيل اتجه إلى الكويت وكانت الكارثة التي يعرفها الجميع - هذا بعد حرب مريرة ضد إيران استهلك فيها ثروته وثروة العرب الأخرين وأفني ملايين من العراقيين. ولم يكتف بهذا بل راح يتشدوق بحيازته لأسلحة دمار شامل وهو في الحقيقة وكما ثبت بعد أن طاحت الفاس بالراس كما يقول المثل، لم يكن يملك إلا التشدق بكلمات جوفاء لا معني لها

عندما راح يعدد أسماء جيوشه وقواته مثل النشامي والمخابرات والمغاوير وفدائتي صدام وأبطال حزب البعث. كل هذا بينما شعبه يتضور جوعا بعد الخراب الذي جلبه هذا الدكتاتور الغبي حتى أصبح شعبه لا يجد لقمة العيش حرفياً بينما هو وزبانيته يكنزون ملايين الدولارات ويعيشون حياة متفسخة منحلة. وطبيعي أنه عندما جد الجد فر صدام وأعوانه مذعورين كالجرذان وحلت كارثة جديدة بالشعب العراقي المسكين. ولكن هل قدر للعرب دوماً أن يكون هذا وضعهم وهذا موقعهم من خريطة سكان المعمورة؟ هل ثمة أمل في انطلاق تلك الشرارة التي تخرجهم من هذا السبات الذي طال أمده حتى أصبح صفة ملازمة لهم؟ أن العرب يعيشون الآن عصر ذلهم وقهرهم وهوانهم على الناس. لم يعد أحد يحفل بهم ولم يعد لهم صوت مسموع في العالم. أصبحوا أذلاء مقهورين ولم يعد بقية العالم يلتفت إلى أوضاعهم وهمومهم ومصائبهم وهزائمهم وذلهم. بل لقد هانت أنفس العرب عليهم هم حتى لم تعد جراحهم تؤلمهم. هذا هو حال القوم الذين قال الله فيهم ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾. إن السر بالفقرة الأخيرة. الإيمان بالله هو ما يفتقر إليه العرب الأن مع كل أسف. لا يمكن لأحد يؤمن أيمانا صادقاً بالله إلا وتأبي عليه نفسه أن تذل. إن ما يميز أسلافنا

عنا هو أنهم آمنوا بالله وعملوا بإيمانهم ونحن آمنا باللسان ولم تؤمن قلوبنا بصدق. وإلا فكيف نفسر الضعف والتخاذل والتواكل وعدم المبالاة بل حتى والجبن والبعد عن المغامرة وعن دروب الشجاعة والركون إلى الحياة الكسولة المترفة أحياناً والتي لا تخلف إلا إناساً مترهلين متعفنين لا تهمهم إلا أنفسهم وملذاتهم الرخيصة.

ولأن البداية كانت متواضعة وكنت أنتمي إلى الفرع الفقير من عائلتنا ولأنني عانيت مع أخوتي ووالدتي ما عنيناه في تلك القرية السورية كما بينت ذلك في كتابي ما لم تقله الوظيفة فقد انطبعت ملامح النشأة الأولى عمقاً في كياني وكونت أساساً متيناً في تشكيل شخصيتي. وليس في هذا شيء جديد أقوله أو غريب انفرد به أنا، فكل إنسان يتأثر بما يحوط به من أنماط معيشية واجتماعية في بداياته الأولى. قد تمحي الأيام بعض خصائصها إلا أن ظروف النشأة المبكرة تؤدي دوراً هاماً في تشكيل شخصية الإنسان. فأنا مثلاً إلى الآن لا ألقي بالاً إلى ما تراه زوجتي وأولادي شيئاً هاماً وأساسياً لا يمكن تجاهله.. لأضرب مثلاً: عندما بنيت بيتي في الرياض لم ألتفت مطلقاً إلى شكل البيت من جمال التصميم وما يسمى الديكور عند اختيار الفرش. طبعاً أسرع فأقول أنه لم تكن لدي القدرة كي أتحكم في نوعية المفروشات ودرجة فخامتها وماذا يتماشى

مع ماذا ولا أمكانية توزيع قطع التجميل (الديكور) مع باقي قطع الأثاث، ولكن حتى لو سلمنا بأن هذا لم يكن ضرورياً ولا مطلوباً فإنني لم أحاول حتى أن أدرس خريطة المنزل مع المهندس الذي صممها وقبلت تقريباً بما عرضه لأنني كما أسلفت أجد أن أي شيء تقريباً طالما تتوفر له أساسيات ما أحتاجه يكن مقبولاً لدي. وإلى الآن لا أجد معنى كبيراً للتفاصيل التي يبديها الأولاد ووالدتهم عندما يناقشون تناسق الألوان والأشكال التي يصرون عليها كلما حدث وأصلحنا من شأن غرفة أو جانب من المنزل وبطبيعة الحال لا أجد أي حرج في الاعتراف بأن زوجتي أم نزار لا تثق أقل ثقة في ذوقي إذا حاولت الاشتراك في النقاش فهي سرعان ما تقترح علي أن أشغل نفسي بأي شيء آخر وأترك الأمر لها وللأولاد.

لقد قلت في بداية هذا الفصل أن الظروف المعيشية والإجتماعية التي تحيط بالفرد منذ البداية تؤدي دوراً أساسياً في تشكيل شخصيته - ولا أقصد أن هذا يتعدي إلى تشكيل العامل النفسي أيضاً لأن الإنسان قد يولد قنوعاً راضياً باليسير البسيط حتى ولو كان ينحدر من سلالات الملوك والأرستقراطيين. والأمثلة كثيرة لأناس ملكوا الدنيا ولكنهم عاشوا حياة الزهد والبساطة ولا أقصد فقط المسلمين الأوائل الذين تربوا على يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ خذ

مثلاً الملك فيصل بن عبدالعزيز رحمه الله. لقد كان نموذجاً رائعاً في الزهد والترفع عن بهرجة الحياة وملذاتها. كان يسكن في منزل بسيط وكان أثاث منزله أبسط من بيته. وكان يستعمل سيارة واحدة ويرفض أن تبدل وإن كانت أحياناً تستعصى على الحركة. أتوا له بسيارة ذات مرة وهو في مكتبه، ولما خرج من المكتب ورأى السيارة الجديدة نظر إليها وسأل من الذي أتى بالسيارة الجديدة وهل كان ذلك بأمر منه. ولما أجابه بعضهم أن سيارته أصبحت قديمة أجاب بأنه لم يشك من قدم سيارته وطلب منهم أن يعيدوا له سيارته القديمة، وقد كان.

وأود هنا أن أزيد أن مثل هذا النمط السلوكي لابد وأن يتطلب إرادة صلبة ومبادئ ثابتة.

ما ينطبق على نظرتي للمنزل وفرشه وديكوره - أو عدمه - ينطبق بالتالي على تعاملي مع باقي متطلبات الحياة. ولا غرابة في هذا لأن الكلية الشخصية تأتي غالباً منسجمة مع بعضها البعض وإلا كان الإنسان غير سوي. فأنا مثلاً لا يهمني ماذا آكل من طعام أو ألبس من ثياب طالما أن الضروريات متوفرة. هنا طبعاً كالعادة تقف لي أم نزار بالمرصاد. فهي التي تقرر متى يحين الوقت لتفصيل ثياب جديدة للصيف والشتاء ولهذا لا ينقصني - والحمد لله ثم الشكر لزوجتي - القدر المطلوب من الأناقة!.

أذكر حينما ذهبت إلى القاهرة للدارسة وجاءت امرأة لتتولى تنظيف الشقة وتطبخ الطعام. جاءتني في اليوم الأول سائلة ماذا أريد من طعام. لم أعد أذكر تماماً ماذا طلبت منها أن تطبخ إلا أنه لا يخرج عن نوع خضار وأرز وربما بعض الفاكهة. عندما جاءتني في اليوم الثاني تسألني السؤال نفسه كان جوابي لها أن تختار هي ما تطبخ وما تحضر من طعام ولا تسألني بعدها عن الطعام أبداً. وهكذا كان.

وأود من أن أضيف هنا إن كل إنسان عادي يمر بمراحل عديدة في حياته ليس فقط من الناحية البيولوجية بل أيضاً من تطوره الذهني والعاطفي وما تكون النفس مطية له من إحساسات متباينة ومراحل حياتية تتفاوت فيها تلك النفس في تعاملها مع ما حولها من أناس وأحداث. كما أن النفس الإنسانية تتغير وتتطور في مراحل حياة صاحبها ونظرته إلى الحياة وتعامله معها في تلك المراحل المختلفة، فالصغير له عالمه المحدود الذي يعيش داخله ثم مع نموه تتغير معالم ذلك العالم حسب سنوات نموه. وعندما يصبح الصغير شاباً تتغير نظرته إلى الحياة وتتسع آفاق تطلعاته، وهكذا. ويمكن أن نقسم الحياة بعد الطفولة عند معظم الناس إلى ثلاثة أقسام هي على وجه التقريب: المرحلة الرومانسية ثم مرحلة العقل وأخيراً مرحلة الأمر الواقع. وهذا التقسيم قد لا ينطبق تماماً على الجميع فمن الناس

من قد لا يمر بمرحلة الرومانسية بل قد يعبر مباشرة إلى مرحلة العقل ومنها إلى المرحلة الأخيرة ولكن معظم الناس على ما أعتقد يمرون بهذه المراحل الثلاثة بعد الطفولة.

واقع الأمر أن مرحلة الشباب هي مرحلة الرومانسية التي ذكرتها. قد لا نجد كلمة عربية بديلة مناسبة ولكن ربما تكون كلمة العاطفية هي القريبة من المعني. يشعر الشباب في مرحلة المراهقة والشباب بالعاطفة المشبوبة فهم يصبحون بحاجة إلى الإعلان عن أنفسهم عن طريق التقرب من الجنس الآخر. أنه شيء غريزي بل أنه في هذه السن الشبابية تتكون لدى الشاب والفتاة أيضاً قدر كبير من العواطف التي تبحث عن وسيلة للتعبير عن نفسها. لم يشرح لي أحد أبداً في مقتبل عمري شيئاً عن الحب أو الجنس، بل إن مواضيع مثل هذه تعتبر عندنا من المحرمات ولا يخوض فيها الأباء والأمهات. لكنني لم أحتاج لمساعدة أحد عندما حان الوقت ليفتح قلبي على عالم وأسرار الميل الغريزي للجنس الآخر. وعندما بدت روحي ودون توجيه من أحد تبحث عن نصفها الثاني كان ذلك أمراً حتمياً لابد أن يحدث. تتعطش الروح السوية إلى الالتقاء بنصفها الثاني وتتفتح براعم العاطفة في الوقت المناسب ولا تروي تربتها وتبقى مزدهرة إلا عندما تجتمع الروحان. وإلا تذبل البراعم وتتساقط ويذبل عودها ويجف.

حبذا إذن والحال هذه أن يتبرع الأبوان أو أحدهما في الوقت المناسب من أعمار أبنائهم بإعطائهم شيئاً من التوعية عن بعض حقائق الحياة التي سيواجهها الأبناء. لكنني لست على يقين أن الأبناء في أيامنا هذه التي تتهمر علينا فيها كل أنواع المعرفة المطلوبة وغير المطلوبة والمحظورة وغير المحظورة - أقول لست على يقين أن أبناءنا يحتاجون منا في أيامنا هذه إلى ذلك النوع من التوعية.

والنكتة هذه ربما تعكس شيئاً من هذا الواقع: طفل يسأل أمه.

وأنا لا أشك أن أهم المراحل في حياة الرجل هي المرحلة الثانية وهي مرحلة العقل لأنها فترة تكوين الشخصية أو هي نتاج المرحلة السابقة حيث يحين موعد القطاف. هي المرحلة التي يواجه بها المرء الحياة يعمل ويكد ويكدح ويبني مستقبله وهي المرحلة التي يكون الرجل فيها أشد ما يكون قوة وعنفوان.. فهي مرحلة البناء والتكوين ومرحلة صراع من أجل إثبات الذات يختبر فيها الرجل عوده وفيها تكون لديه المقدرة لتحمل الصدمات والخيبات وأيضاً السعي للنجاح وتحقيق الأهداف وبناء قاعدة يقف عليها ويستظل بظلالها هو ومن يلوذ به. ومن حكمة الله تعالى أن جعل الرجل في تلك الفترة

أقوى ما يكون في حياته. فأنا الآن أنظر إلى الوراء وأتعجب أحياناً كيف كان بمقدوري أن أقوم بما قمت به في الفترة الوسطية هذه التي أتكلم عنها، أنا لا أدعي طبعاً أنني أتيت بما لم تستطعه الأوائل ولكني أقول أنه لا يمكنني الآن أن أتحمل المشاق ولا الجهد والإصرار الذي كنت أتحلى بهما عندما كنت في تلك المرحلة من عمري.

ولأضرب مثلاً بسيطاً عما أعنيه: فإنني أثناء دراستي العليا كنت مثلاً أمضي أحيانا ثمان وأربعين ساعة دون نوم لأتمكن من إنجاز بحث كان علي أن أنجزه في وقته المحدد تنفيذاً لأوامر المدرس المشرف علي دراستي.

هل بمقدوي الآن أن أفعل ذلك؟ لو طلب مني مثل هذا الواجب الأن فإن جوابي سيكون أنه لم يعد في العمر بقية توجب القيام بمثل هذا الطلب عدا أنه يصعب تحقيقه جسديا.

شاهدت مرة في التلفزيون المصري مشهداً صغيراً كوميدياً يشرح بطريقة مناسبة مراحل العمر الثلاثة التي ذكرتها: يظهر أحد الممثلين الشباب مرحلة الرومانسية وبجانبه عروسته الشابة وهو يكيل لها كلمات الحب والغزل ويتغنى بجمالها الأخاذ وبشدة ولهه بها، كان المشهد في أحد المطاعم والزوجة الشابة منهمكة في اختيار طبقها المفضل وكان العريس المغرم

يحثها على طلب كل ما في المطعم من أطايب الطعام وهو لا يتوقف عن اطراء جمالها ومدى حبه الكبير لها، ثم يتغير المنظر فجأة وقد مضى على زواجهما بضعة عشرة سنة ووصل الزوجان إلى منتصف عمرهما - مرحلة العقل - وهما في نفس المطعم والمرأة تنظر في قائمة الطعام ويسأل الزوج عن أنواع الطعام لدى المطعم وبعد أن يعدد النادل أنواع الطعام والزوج أثناء كل ذلك مكشر الوجه لا يتبادل كلمة واحدة مع الزوجة التي كان يهيم بها منذ سنوات، بعد كل ذلك وبعد أن عدد النادل أصناف الطعام يطلب منه الزوج أن يأتيهم بصحنين من السلطة فقط ولا شيء غير ذلك. أخيراً يظهر الزوجان في المنظر الثالث والأخير وفي نفس المطعم وقد بدا عليهما الكبر وتقوس ظهر الرجل وانتابته الأمراض وخبا عنفوانه وزالت قوته وجبروته ووهن صوته. وبعد أن عدد النادل أنواع الطعام كالعادة يطلب الزوج منه طبقين من الشربة التي يستطيعان هضمها وبصوت واهن يسأل زوجته إن كانت لم تنس أن تحضر له أدوية السكري والضغط والروماتيزم!.

على الرغم من أن المنظر الفكاهي لحياة الزوجين لم يأخذ إلا دقيقة أو دقيقين إلا أنه صور باقتدار وصدق حياة زوجين من الناس تمثل حياة آلاف غيرهم ممن ساروا ويسيرون على نفس الطريق ويبدأون كما بدأ هذان الزوجان وينتهون بمثل ما

انتهيا إليه. ذلك الاسكتش الصغير الذي شاهدته ذات يوم على إحدى شاشات التلفزيون المصري كان من أجمل وأصدق ما شاهدته يمثل على الشاشة. لقد تمكن من تصوير حياة كاملة في ثلاثة مشاهد قصيرة ويضع كلمات اختصرت حياة امتدت لعشرات السنين.

يطلب مني الكثير من الأصدقاء والمعارف وأيضاً كثير ممن قرأوا كتابي الأول «ما لم تقله الوظيفة» يطلبون مني وجزاهم الله خيرا أن لا أتوقف عن الكتابة وأن أحاول أن أقدم عملاً أو أعمالاً أخرى لها نفس جاذبية كتابي الأول. والغريب أن معظم من يطلبون ذلك لا يدركون أنني نشرت كتابين آخرين بعد الكتاب الأول هما رواية وترجمة لكتاب رحالة غربي. طبعاً لا أحتاج أن أضيف أنه لو عرف الناس أنني نشرت بعد كتابي الأول كتابين آخرين ولم يلقيا نفس النجاح الذي لاقاه الأول لما طلب مني أحد أن أكتب أي كتب أخرى. لكنني بالرغم من ذلك وجدت نفس منساقاً إلى عالم الكتابة مرة أخرى؛ و كما يقولون يموت الزمار وأصابعة تلعب. أنا لا أتقن شيئاً آخر غير الكتابة، هذا طبعاً مع افتراض أنني أتقن الكتابة. ولم أنجح في حياتي في شيء آخر، لا مشروع يدر علي دخلا ولا مضاربة في العقار مثلاً الذي أثرى عدداً لا يحصى من الناس. بل إنني لسوء حظي - وهو في معظم الأحيان سيء والعياذ بالله - لقد

اخترت أسوأ وقت في سوق الأسهم لأجازف في الدخول فيه. كان المبلغ متواضعاً لكنه بالنسبة لي كان كبيراً. أخذت أسوأ وقت للدخول في السوق، فقد جمعت ما استطعت من نقود ودخلت السوق في الوقت الذي كانت الأسهم تكاد تنفجر من حمى الصراع والأرتفاع غير الطبيعي - وسأبقى بقية عمرى أتحسر أنني لم أخرج من السوق بعد أسبوعين أو ثلاثة من دخولي فيه وقبل أن يحصل الانهيار الرهيب؛ ولا زلت أنتظر الفرج... لعل وعسى. ألم أذكر قبلا أن الأكاديمي لا يمكن أن يفلح إلا بقراءة شيء أو كتابة شيء. حتى الأنترنت الذي لم يبق طفل في عالمنا الحديث إلا وصار عنده الكومبيوتر والأنترنت كشربة ماء. هذا الكومبيوتر والأنترنت يخيفني عندما أنظر إليه وهو على مكتبي قابعاً ساكناً صامتاً لا أجرؤ على الإقتراب منه. تغلبت على الأمية الأولى ولحزني الشديد دخلت أمية أخرى لا أستطيع الخروج منها.

لقد أصبح عالم الكتابة والأدب عموماً عالم ترف لا يلجه إلا القلة القليلة من الناس. وهو أيضا عالم يعيش فعلاً في برج عاجي لا يصل إليه إلا من وطن نفسه على خوض غمار المعركة الشرسة التي تحتدم في عصرنا هذا بين الكلمة المكتوبة التي أضنى عليها الدهر وكسر لها جناحيها وفرق عنها مناصروها وبين الغول المفترس المتمثل في هذا السيل الكاسح من

الاختراعات الحديثة التي شملت كل نواحي الحياة. أن ما يقدمه العقل البشري في أيامنا هذه كل يوم من أيام حياتنا من تقنيات جديدة غريبة وعجيبة وما يقدمه من وسائل ترفيه وتسلية، وأيضاً معلومات يصبها الأنترنت أمام ناظريك بمجرد لمسة زر، كل هذا جعل من الكتاب مثل اليتيم على موائد اللئام. لم يعد الكتاب ذلك الرفيق الذي نشأ جيلنا لا يرى أخلص ولا أنبل ولا أوفى منه. صار مخلوقاً غريباً في عالم صار هو أيضاً غريباً يقطنه أناس لم تعد لهم صلة به.

وأنا في الواقع أعد نفسي محظوظاً جداً إذ أجد الناس يقبلون على كتابي ويسألوني عنه بل ويشجعوني على كتابة آخر.

ولكن مع كل الأسف وكما ذكرت سابقاً لم يعرف أولئك أن لي كتابين آخرين وأكرر مرة ثانية أنني محظوظ أن يعرف الناس بكتابي الأول، إذ هناك كتب كثيرة تكتب وتنشر وتوزع أو يحاول أصحابها توزيعها ولكن لا يشعر بها أحد. وهذا - دعني أسرع بالقول - ليس بالضروري لأن الكتاب فاشلاً أو غير مقروء، ولكن لأننا أمة لم تعد تقرأ. وقد شرحت الأسباب، والغريب أننا نتميز نحن العرب ربما عن معظم شعوب العالم، بأننا ننبهر بالأشياء الحديثة بسرعة البرق ونتمسك بها

ونتبناها وننس حضارة وثقافة وتقاليد وعادات عمرها آلاف السنين. وإلا كيف انفرط بهذه السرعة عقد العائلة الكبيرة التي يضمها منزل واحد ولها رب واحد يعترف له الجميع بالسيادة المطلقة ويقدمون له بحب واحترام فروض الولاء والطاعة لا يشذ عن ذلك أحد من العدد الكبير الذي يحويه البيت الكبير.

عشنا آلاف السنين على نظام حياتي واحد وقوانين اجتماعية يخضع لها الجميع بالبديهة. لا يخطر على بال الصغير أن يخرج عن طاعة واحترام من هو أكبر منه ولا يخطر على بال الابن أن يترك بيت والده الكبير إلى منزل مستقل. يجتمع الجميع على مائدة واحدة وينامون تحت سقف واحد.

قد يقول قائل إن الحياة لا تبقى على حال وأن التغيير سنة الحياة وهذا قول صحيح ولكنه غير صحيح إذا تعدى إلى أن يتنكر أفراد العائلة لبعضهم البعض ويأخذهم الجري المحموم وراء مشاغل الدنيا بعيداً عن أهلهم وذويهم.

والغريب العجيب أننا عشنا في هذه البلاد مئات السنين على نمط معين من التواصل الأسري وعلى الحفاظ على عادات الأجداد وتقاليدهم وخلال سنين قليلة انقلبنا رأساً على عقب. اسقطنا تقاليدنا وموروثاتنا التي عشنا بها آلاف السنين

بمثل السهولة التي نخلع بها ثوبنا المتسخ. جذبنا بريق الحضارة الحديثة الآتية لنا من هنا وهناك. هجرنا كل ما كان يربطنا بالماضي.

لقد مضى عليّ إلى الآن ما يزيد على الأربعين عاماً في السلك الوظيفي الجزء الأكبر منها في المراسم الملكية. وقد أتيت على كيفية انتسابي وانضمامي لأسرة الديوان الملكي الكبيرة. كان ذلك أيضاً مجرد صدفة ولا يشك أحداً أن للصدفة دوراً كبيراً في حياة الناس. ولا أريد هنا أن أكرر ما قلته عن كيفية نقلي من الجامعة حيث كنت مدرساً للغة الإنجليزية إلى المراسم الملكية. وعندما أتحدث عن الصدف في حياتنا جميعاً فإن ذلك يعني حسب ما أرى أن إنساناً ما قد يرى نفسه في موقع عمل هو غير مؤهل له. وأنا أزعم أنني وعلي الرغم من أنني نجحت في اختيار الترجمة من اللغة العربية إلى الإنجليزية والعكس فإن هذا لم يكن دليلاً على أنني أتمتع بالمزايا وبالصفات التي يجب أن يتحلى بها رجل المراسم!! وقد يقول قائل الآن وبعد مضى كل تلك الأعوام يأتي أخونا ليقول أنه لا يحمل المؤهلات المطلوبة لرجل المراسم. وهذا سيكون ظلماً لي بلا شك. عندما التحقت بالخدمة بالديوان الملكي - المراسم الملكية - لم يكن من ضمن مسؤلياتي العمل على تطبيق قواعد البروتوكول ولم أكن أعرف شيئاً عن كيفية

التعامل في حضرة الحاكم أو التعامل مع كبار ضيوف الدولة. وكنت طبعاً منقاداً لما يملى علي من أوامر وتعليمات ممن هم في موقع المسئولية. ولم يكن ذلك صعباً إذ كل ما كان علي أن أقوم به هو الترجمة بين الملك وضيوفه.

ولا أريد هنا الدخول في موضوع صار باهتا من كثرة ما كتب وقيل عنه وهو وضع الرجل المناسب في المكان المناسب. ربما كنت الرجل المناسب لمهام الترجمة، ونحن على كل حال لا نعرف من هو الرجل المناسب إلا بعد أن نختبره فنعرف إن كان مناسباً أو غير مناسب. ولكن الكياسة هي في إرسال الرجل الغير المناسب إلى داره أو أي مكان آخر إذا وجد أنه غير مناسب لعمل معين بعينه. ونحن برأيي لا نفعل ذلك ولدينا رجالاً غير مناسبين للأعمال التي يقومون بها ومع ذلك يستمرون في أعمالهم إما لأنه سكت عنهم في البداية ثم بعد ذلك اكتسبوا خبرة لمجرد تأديتهم العمل الذي يقومون به لمدة كافية، أو لأن هناك من يدعمهم فيبقوا في أماكنهم بغض النظر عما يمكن أن ينجذوه وبغض النظر عن أنهم قد لا يعملون شيئاً أصلاً. ولدينا الكثير من هؤلاء خاصة من صغار الموظفين الذين يوظفون في المصالح والوزارات المختلفة لمجرد أنهم انهوا دراساتهم ولابد لهم من وظائف. ولا أظن في الحقيقة أن مثل هذا الإجراء أو هذا الوضع حكر مهينا في

المملكة وأنا على يقين أن مثل ذلك وأكثر منه يحصل في البلدان العربية ودول العالم الثالث. وطالما قرأنا وسمعنا أن العامل بمعناه المجرد لا يعمل أكثر من بضع دقائق في اليوم كله.

ألقت عصاها واستقر بها الندى

هكذا مرت الأيام والسنين وجاء الوقت الذي كان على المسافر أن يلقي عصا ترحاله. مرت كل تلك السنين الطوال، ما يزيد على ست وأربعين عاماً من الخدمة في العمل الحكومي منها حوالي عشر سنوات في حقل الدراسة العليا والتدريس. والباقي في الديوان الملكي - المراسم الملكية.

أسرع هنا فأقول إنني لا أنوي أن أؤلف كتاباً جديداً عن حياتي الوظيفية إذ أنني تطرقت في سيرتي الذاتية بطبيعة الحال إلى طرف من عملي في الديوان الملكي وليس هناك شيئاً كثيراً يمكن أن أزيده أو بالأحرى أستطيع أن أضيفه هنا لأسباب كثيرة لا أجدني ملزما بذكرها لكن يمكن للقارئ أن يعتبر هذا الكتاب يضيف بعض الجوانب والأحداث وبعض المواقف لما فاتني أن أذكره في كتابي الأول، وهو بحكم الواقع سيلمس جوانب من حياتي عامة وتجاربي الحياتية بما فيها عملي الحكومي وبحكم الضرورة ستتداخل أحداث الكتابين الأول والثاني في مواقع عديدة.

إن العمل مع الملوك والحكام له سحر خاص وجاذبية لا يقوى كثير من الرجال على مقاومتها وهم في هذا معذورون فهناك يجدون الشهرة والمجد والعلو إن هم اتقنوا سبل التعامل الصحيح مع رئيسهم الكبير، ولا يستطيع ذلك كل الرجال. في كل مجال عمل هناك تنافس بين من يعملون في المكان الواحد أو العمل الواحد، وهذا التنافس يشتد ضراوة كلما علت المناصب.

أذكر إنني بعد أن نشرت كتابي الأول أرسلت منه نسخاً إلى بعض الشخصيات الرسمية الكبيرة ومنهم صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز أمير منطقة الرياض. وحدث إنني بعد ذلك ببضعة أيام وجدت بعضاً من أصدقائي يشدون الرحال إلى دبي في رحلة نهاية أسبوع فرافقتهم. كنا نسمر في الفندق وقد شارفت الساعة على الثانية عشرة ليلاً. وفجأة رن جرس الهاتف وقال عامل التليفون أن الرياض تطلب الأستاذ منصور الخريجي. أخذت السماعة وإذا بالمتحدث يسألني أولاً إن كنت أنا منصور الخريجي ولما أجبت بالإيجاب قال كلم الأمير سلمان. طبعاً كانت تلك مفاجأة لم تكن بالحسبان على الإطلاق. بدأت دقات قلبي تتسارع وأول ما خطر بذهني أنني بمجيئي إلى دبي ولم أعلم أحدا على اعتبار أنه نهاية أسبوع قد اقترفت خطأ إدارياً. وقد نسيت وقتها أو تناسيت أن الذي

يعمل بالمراسم الملكية لا يوجد عنده ما يسمى نهاية أسبوع إذ أن طبيعة العمل تتطلب التواجد في أي وقت وأي يوم في الأسبوع. قلت في نفسي لعله خيراً إن شاء الله ولربما لا تزيد المسألة عن وصول ضيف بشكل مفاجئ ولسبب أو آخر عرف سمو الأمير أنني غير موجود.

كل هذا طاف بذهني قبل أن أرد على الأمير سلمان - وبالمناسبة يمكن أن يطوف بذهن الإنسان من الأفكار والهواجس ما يملأ صفحات كتاب في ثوان - كما أن هناك تقليداً لطيفاً جداً يتبعه عاملوا التلفونات في بيوت خادم الحرمين الشريفين وسمو ولي العهد وكبار الأمراء وهو أن يخطرك عامل التليفون أنه سيصلك بالمتكلم لكي تستعد أنت لذلك. ابتدأني الأمير سلمان بسؤال بدا من لهجة سموه أن فيه بعض الحزم - أو هكذا خيل إلي. قال ماذا تعمل في دبي قلت لا شيء طول الله عمرك - وجدت بعض أصدقاء قادمين هنا وجئت معهم. عسى خير. قال أبدا أنا ابتدأت أقرأ كتابك من الساعة العاشرة والأن صار منتصف الليل ووجدت الكتاب في الحقيقة شيئاً جميلاً وقيماً. وهو برأيي ليس فقط من أجل أولادك كما ذكرت في المقدمة ولكنه يعتبر درساً ومرشداً لأبناء المملكة جميعاً. طبعاً للقارئ أن يتخيل الأن مدى تأثير هذه الكلمات على نفسي. لقد نزلت على قلبي كما تتحدر شربة ماء

بارد في نهاية يوم صوم في نهار قائظ كالذي كنا نعانيه عندما كنا نصوم ونحن صغارا في المدينة المنورة في أشد أشهر الصيف حرارة وألهبها سموماً. مضت نهاية الأسبوع وعدت إلى الرياض مع الأخوان ووجدت كل من في المطار يطلب منصور الخريجي. نعم أنا منصور - كلم الأمير سلمان حالاً!..

لا حول ولا قوة إلا بالله. لا بد أنه وجد شيئاً في الكتاب لم يعجبه. وكان من نقل إلى الخبر حريصاً على أن أقوم بالمكالمة من المطار ورفضت لأنني أردت إن كانت هناك «هوشه» من نوع ما أن تكون داخل جدران بيتي لأن من طبيعتي أنني لا أستطيع مثل بعض الناس أن أكتم ما في نفسي. يعني لو كنت زعلاناً مثلاً أو فرحاً أو في أي حالة نفسية معينه فإن الحالة هذه تكون مكتوبه بحروف بارزة على وجهي. وهذا يذكرني بأنني في أي مرة أحاول الكذب على أم نزار تعرف أنني أكذب لأن ذلك مكتوب بالخط العريض على كل ملامحي. والكذب هنا من نوع الكذب الأبيض أو ربما الرمادي الذي يكثر من استعماله معظم الرجال. المهم عدت إلى البيت وأسرعت إلى الهاتف وطلبت الأمير سلمان. وجاء البشير مرة أخرى بما أثلج صدري وأسعدني أيما سعادة. قال الأمير سلمان أنه لم ينم تلك الليلة على الإطلاق بل بقي مستيقظاً إلى أن قرأ الكتاب بأكمله. ثم راح يناقش معي بعض النقاط والتفاصيل الدقيقة التي لفتت

نظره بصفة خاصة وامتدح معظمها وأبدى ملاحظات على بعضها الآخر.

كثيرون في المواقع هم الذين أبدوا إعجاباً كبيراً في الكتاب ولا زالوا إلى الآن كلما جاءت سيرته يمتدحونه بلا حدود. ولربما أن نجاح الكتاب الأول لأي كاتب لا يكون كله خيرا خالصا، إذ أن ذلك يتطلب أن يكون أي كتاب يأتي بعده من الكاتب في مستواه أو أحسن منه. وأنا قمت بتأليف رواية هي «دروس إضافية» وترجمت كتاباً من كتب الرحالة الغربيين إلى الجزيرة العربية هو «عبر الأراضي الوهابية على ظهر جمل». وهذا الكتاب الآخير صغير ومتواضع ومؤلفه شاب دانمركي قام بالرحلة استجابة لطلب الجمعية الملكية الدنماركية الجغرافية. وقد قام الرحالة برحلته في العام ١٩١٢ ميلادية، ووصل في رحلته إلى الرياض وصدف أن وقت وصوله كان الملك عبدالعزيز رحمه الله في إحدى غزواته لتوحيد الجزيزة التي أصبحت المملكة العربية السعودية. وقابل الرحالة الإمام عبدالرحمن بن فيصل والد الملك عبدالعزيز الذي أكرم وفادته وأمده بالمرشدين والمؤن والركائب التي أخذته إلى الإحساء ومنها إلى البحرين عائداً بأحدى السفن إلى بلاده.

أما الرواية فهي تحكي قصة ثلاثة شباب سافروا في الخمسينيات من القرن الميلادي الماضي بعد نيلهم شهادة الثانوية العامة إلى أمريكا للدراسة الجامعية. هذه الرواية نشرتها في لبنان بعد أن رفضت الرقابة في وزارة الإعلام نشرها حيث ادعى الرقيب أنها تتجاوز الخط المسموح به في مجالها القصصي. وقد سعيت مراراً لتغيير هذه التهمة الغير عادلة إلى أن قالت الوزارة ذات مرة أنها رفعت عنها الحظر ويمكنني إحضارها لبيعها في المملكة. وصدقتهم واتفقت مع مكتبة العبيكان لإحضارها وأتوا ببضع مئات من النسخ ليفاجئوا وأفاجأ بأن الوزارة رحبت في قرارها وأن المنع لا يزال سارياً ولتتورط المكتبة بالرواية «دروس إضافية». وما زالت سجينة مخازن مكتبة العبيكان حصل بعد أن كتب هذا الجزء من المذكرات أن قررت مكتبة العبيكان إعادة الرواية إلى الناشر في بيروت. كم أتمنى أن أعرف من هم العباقرة الحكماء الذين يقررون لنا ماذا نقرأ وماذا لا نقرأ. إن محاصرة الإنتاج الأدبي لأدباء بلادنا شيء يجب أن يبلي وينتهي. لقد عفا عليه الزمن وأصبح من السذاجة بمكان أن نمنع أدباءنا من نشر إنتاجهم بل ومن تشجيعهم على الإبداع والإنتاج طالما لا يمس ذلك أساسيات شريعتنا وموروثنا الإجتماعي والأخلاقي، ثم ما هي فائدة القيود التي تفرض على عمل أدبي والعالم الآن بما فيه

من غث وسمين وصالح وطالح مكشوف ومعروض أمام أي إنسان بلمسة زر!

بعض كتب الدكتور غازي القصيبي ممنوعة على ما أعرف، وهو وزير في الدولة!؛ أسأل نفسي أحياناً ماذا سيفعل غازي في كتبه الممنوعة لو صار وزيراً للإعلام والثقافة!!

هذا الكتاب بالمناسبة إن قدر له أن يصبح كتاباً سوف يكون أفكاراً ونثرات من هنا وهناك، يعني سأكتب بعفوية لم أمارسها من قبل، سوف أكتب كل ما أتذكره وكل ما يخطر على بالي. ولكن قبل أن يبدأ القارئ بالتلمظ بشيء لم يذق طعمه بعد سأجذبه إلى الأرض قبل أن يحلق عاليا متوقعاً مني أن أتي بما لم تستطعه الأوائل. قصدت أنني سوف أكتب ما يمكن كتابته كما تتداعى الأفكار برأسي. ولعل كلنا نعرف أن ما يمكن كتابته هو أقل القليل مما تختزنه الذاكره ومما يمر على الرأس من أحداث وتجارب وحكايات ومغامرات، وأظن أنني قلت قبل ذلك في بعض كتاباتي - ولعلي حكيتها فقط - أن كتاب السير الذاتية والمذكرات المتعلقة بحياة الأشخاص لا بد وأن تكون منقاة مختارة خاصة ونحن العرب تصفنا كل شعوب العالم بالقدرة على العيش حياتين مختلفتين بوجهين مختلفين وأقوال ومواقف لكل مناسبة. نحن أمهر الناس بالعيش حياة مزدوجة واحدة أمام الناس والثانية لأنفسنا فقط وربما لبعض المقربين

منا. ربما يقول قائل إن هذا هو طبع الحياة والناس وأجيب أن هذا صحيح ولكن نحن المنتمين للشعوب العربية المتخلفة أتقنا هذا السلوك المزدوج بشكل يحسدنا عليه الأخرون!.

عندنا أسجل هذه الذكريات أو المذكرات أو سمي أفكاري هذه ما شئت لأنه ليس عندي لها اسم أصلاً، أقول عندما أقوم الأن بتسجيل ذكرياتي هذه فإنني بالضرورة أتجنب كثيراً مما مر علي في حياتي، من البديهي أن لكل إنسان حياته الخاصة التي لا تهم الآخرين والتي يجب أن تبقى ملكاً لصاحبها، ولكن في حالنا نحن أبناء هذا الجزء من العالم نجد أن حواجزا كثيرة ترتفع أمامنا عندما نتصدى لتسجيل أحداث حياتنا وتفاعلها مع محيطها على كل الأصعدة.

ولدينا في الثقافة العربية حكمة نرددها عند الضرورة وهي «ليس كل ما يعرف يقال».

والأنكى في الموضوع أن الذي لا يمكن أن يقال هو الأجمل والمثير والأقدر على تفجير النقد والجدل.

وما دمت بصدد الحديث عن كتابة المذكرات والسير الذاتية فأزيد هنا أن المذكرات يمكن أن تكون عملاً عظيماً مجيداً يعطي أروع الدروس وأنبل العظات ويكون صاحبها في نفس الوقت إنساناً بسيطاً جاء إلى هذه الدنيا وغادرها دون أن

يشعر به أحد. وأولا وأخيراً تتنوع المذكرات بتنوع مهن أصحابها. فقد قرأت ذات يوم مذكرات ممثلة غربية ودهشت للصراحة والمكاشفة الكاملة التي انتهجتها تلك المرأة، بينما يمنعنا نحن الشرقيون حياؤنا الفطري وعقيدتنا وموروثاتنا الإجتماعية العديدة من الأتيان بمثل ما أتت به تلك الممثلة الأمريكية.

أذكر أن المرأة هذه سألت ابنتها قبل نشر المذكرات إن كان عليها أن تقول كل شيء أو تختار نتفاً من حياتها تقدمها للناس. كان جواب ابنتها إنها لا داعي لجهد ضائع إن لم تبح بكل شيء وهكذا كان. فقد كشفت كل شيء بما في ذلك لحظاتها الحميمية مع أصدقائها العديدين.

على الجهة الثانية تصور لو كان بإمكاننا أن نطلع على حياة أناس مجهولين. هؤلاء كما ذكرت يولدوا ويموتوا دون أن يسمع بهم أحد. هنا نجد الدروس والعبر وهناك نجد المأسي والمعاناة المستمرة الدائمة التي يعانيها أولئك الناس للحصول على لقمة العيش. إن البشر الذين يعيشون حياة صعبة ويكافحون ليحصلوا فقط على ما يقيم أودهم هم الأكثرية في هذا العالم وهم الذين لدى كل واحد منهم قصة كفاح باك وعراك مع الحياة يبدأ مذ أن يعوا على الحياة ولا ينتهى إلا بأنتهاء حياتهم نفسها.

سوف أحكي لكم طرفا فقط من قصة امرأة عاشت وما زالت تعيش حياة كفاح من هذا النوع. كانت عائلتها تحترف مهنتي الزراعة والرعي معا مثل معظم أهالي البلد وحياة كهذه تعتمد بعد الله تعالى على ما تجود به السماء من أمطار شريطة أن تهطل في مواسمها الصحيحة. كانت المرأة التى أحكي عنها واحدة من عائلة كبيرة تعيش كلها في منزل واحد أو منازل مترابطة متلاصقة واقعاً ومجازا. كانت سيدات البيت الكبير يقمن بأعمالهن المنوطة بهن على الطريقة التي عرفنها وورثنها عن أمهاتهن وجداتهن وهي التفاني بأداء ما يسند لهن من أعمال. كان من نصيب المرأة التي أتحدث عنها أنها كلفت مع زوجها برعي المواشي التي تمتلكها العائلة.

قد يتخيل ساكن المدينة أن عملاً كهذا جميل ويوحي برومانسية غذاؤها الحب وترابها قطرات الندى وموسيقاها همسات النسيم العليل. ولا غرابة أننا لأول وهلة تأتي لنا صورة المرأة كفتاة جميلة رشيقة القوام هيفاء تتهدل جدائل شعرها على كتفيها وينبعث شذى الأزهار التي تحيط بها رأسها فيملأ الجو حولها عبقاً فاتنا. وعلى فكرة لدي صورتين فوتو غرافتين كبيرتين لمنظر لا يختلف كثيراً عما صورته أو تخيلت أن القارئ يتصوره عن فتاه ترعى الماشية وأعتقد جازما أن الصورة أخذت لغرض الاستفادة منها في معرض للصور وقد نجح صاحب

الفكرة وبيعت الصور التي تجسد الرومانسية والجمال العذري للفتاة الجميلة وهي تسوق قطيع الماعز والأغنام في الصحراء.

إنما الصورة الحقيقية للمرأة التي بدأت الكلام عنها تختلف كل الاختلاف عن ذلك. لقد سمعت الحديث من المرأة نفسها وهي الآن قد هرمت ولزمت بيتها في قريتها بعد أن كبر أولادها وصار بمقدورهم أن يهيئو لأنفسهم حياة كريمة سهلة اختفت فيها أيام التعب والشقاء إلى حد ما. قصت علي قصة يوم واحد فقط من حياتها في أيام كدها وكدحها مع زوجها. قالت أصبحنا ذات يوم ونحن في خيمة وسط الصحراء - خيمة صغيرة ذات ثقوب عديدة سمحت طوال الليل للمطر والريح الشديدة أن يمضيا معنا الليل في الخيمة، كان البرد القارس في شتاء تلك الليلة من القسوة بحيث لم نستطيع النوم لحظة واحدة. وما كان على جسمي وجسم طفلي لم يكد يحمينا من لسعة البرد. كانت الماشية قد سيقت في يوم سابق إلى مكان أكثر كلأً من المكان الذي كنا نخيم فيه. وكان علينا أن نبدأ رحلة السفر قبل بزوغ الفجر، ونحن بالمناسبة نبدأ العمل دائماً قبل أن يطلع نور النهار. لم يكن الجو قد تحسن كثيراً فالسماء ما زالت ملبدة بالغيوم والريح تخترق ملابسنا وتجمد أطرافنا كان علينا أن نسير أكثر من خمسة عشر كيلو مترا للوصول إلى الموقع الجديد. لم يكن السير مثل هذه المسافة أو

الأكثر منها ليشكل لي مشكلة لو كنت أسير بمفردي، لكن المشكلة أنه كان على أن أحمل على رأسي قدراً ضخماً، قد امتلأ بقدور أصفر وصحون وبعض المتعلقات الأخرى وهي كل ما نملكه. كان علي أن أوازن القدر الضخم على رأسي دون أن أمسكه بيدي لأن يدي كانتا تحملان طفلي! كنت أمشي والريح القوية مصحوبة بذرات المطر تصفق وجهي الذي لم أكن حتى لأستطيع أن أمسح عنه الماء بسبب الحالة التي كنت عليها؛ تصور أنني سرت مسافة الخمسة عشر كيلو متر لم استرح فيها إلا عندما اضطربت لإرضاع ابني عندما بدأ يصرخ من الجوع!!

الكتابة موهبة يهبها الله تعالى لمن يشاء من عباده، والكتابة التي أقصدها هي طبعاً تلك التي تشد القارئ وتجذبه إما بأسلوبها أو بما تحمله من محتوى وإن كان الاثنان يكملان بعضهما البعض. ويبقى الأسلوب الكتابي المقروء موهبة لا يتقنها إلا من أعطي تلك الموهبة. وقد يستغرب بعض القراء أن أسلوب طرح المادة هو بحد ذاته عاملاً رئيسياً في اجتذاب القارئ حتى ولو كان لا يحوي الكثير من الجديد. وقد علمنا أساتذتنا الكبار أن المادة المكتوبة يمكن إذا جاءت بأسلوب رشيق أن تقوم مقام العامل الإخباري أي الذي يطلعك على شيء جديد لم تكن تعرفه من قبل. كما تعلمنا منهم أن نفس الشيء

يمكن أن يطرح بأسلوبين مختلفين ومن كاتبين مختلفين ويؤدي الغرض نفسه دون أن يتهم أحد الكاتبين بالاقتباس من الآخر. ومن البداهة أن حقول المعرفة في زمننا هذا قد أصبحت متاحة في متناول العاملين في حقولها ولا يعيب المنشء أن يعالج نفس المادة التي عالجها غيره ولكن يعاب عليه لو «اقتبس» نص غيره كلمة كلمة.

وعلى كل حال نحن في عالمنا العربي لسنا أمة قارئة. ولا أجد أنني أبالغ بقولي هذا. شبابنا لا يقرأون ونساؤنا مشغولات بشئون حياتهن وموظفينا منهكين بعد أن يمضوا نهارهم يشربون الشاي ويتحدثون مع زملائهم عن أسعار الأسهم وأخبار رياضة كرة القدم. ثم من الذي يستطيع الأن أن يأتي بكتاب يكون على درجة من التشويق بحيث يجذب الرجال والنساء بعيداً عن مشاهدة قنوات التلفزيون؟ فعلا لقد تغير عالمنا، تغير بسرعة لم نتوقعها ولم نستعد لها.

وأنا أعتقد أنني وجيلي من الكهول كان حظنا أحسن بكثير من حظ أبنائنا حيث عشنا في زمن لم يكن هناك فيه تلفزيون أو انترنت وغيرها من المخترعات الحديثة. ولا أظن إلا أنني لو ولدت في هذا الزمان لكنت مثل شباب هذا الزمان وإذا أتيح لي مثلاً أن أشاهد فلماً عن قصة لنجيب محفوظ فلماذا أضيع

وقتي في قراءة الكتاب نفسه في ساعات وربما أيام إن كانت مشاهدته في السينما أو التلفزيون لا تستغرق أكثر من ساعتين؟! ودعوني من حكاية متعة القراءة فهذه أصبحت موضة قديمة واتركوني أتجول في متاهات الانترنت الساحرة!. ومع ذلك لا أود أن أنكر أن بعض الناس وربما كثيراً من الناس ما زالوا يلجأون للكتاب للترويح عن أنفسهم خاصة إذا وفق الكاتب في أسلوبه ومادته.

وقد كان من نصيب كتابي الأول ما لم تقله الوظيفة أن نال حظاً طيباً من القبول ربما لأن كتب السيرة تجذب الناس عامة ولأن أسلوبي الكتابي وكذلك مادة الكتاب لا شك كان لهما الأثر الكبير في هذا القبول، هذا طبعاً بعد توفيق الله عز وجل، والكاتب في بلادنا لا يكتب أصلاً للتكسب، ولو كان ذلك كذلك لكنت أصبحت الآن من الأغنياء لقد انتشر كتابي المذكور وقرأه كثير من الناس ولكن قلة من الناس حصلوا عليه بطريق الشراء. وهذا ليس بخلاً منهم ولكنه العرف السائد لدينا في أن صاحب الكتاب يهديه، فأنا لم أسمع مثلاً أن استاذنا الدكتور عبدالعزيز الخويطر قد باع كتاب واحداً من كتبه، وكذلك يمكن القول عن الدكتور غازي القصيبي فهما يكتبان ويهديان كتبهما. فالعرف هنا أنك تنشر كتابك ثم تهديه للناس. سألت مرة مسئولاً عن المبيعات في مكتبة العبيكان عما إذا كان

كتابي يباع جيداً فأجاب بالإيجاب، ولما سألته لماذا إذا لم أتلق منهم أي ريع من البيع فأجاب أنني أنا الذي أشتري الكتاب!.. وهذا طبعاً صحيح لأنني طالما اشتريت منهم صناديق معبأة بكتابي، أحضرها لتكون جاهزة للتوزيع على من يطلبها. لم أذكر إلا ربما نادراً جداً أن أحداً سألني أين يباع كتابي، بل هم يطلبون نسخة أو أكثر. ذات مرة طلب أحدهم عشرة نسخ مرة واحدة!..

أنا الأن إنسان متقاعد وقد انخفض دخلي الوظيفي إلى النصف تقريباً، سوف أصر إصراراً حازما على أن أبيع نسخ الكتاب ولا أهديها خاصة إذا نجح هذا الكتاب الذي تقرأونه الآن - وحتى إذا لم ينجح سوف أحاول أن أكتب شيئاً ينجح - ولا عيب في ذلك فالكتاب في كل العالم يكتبون ويبيعون كتبهم. انظر مثلاً إلى مؤلفة سلسلة هاري بوتر، لقد أصبحت كما يقولون أغنى من ملكة إنجلترا - فلو كانت الطوابير الطويلة التي تنتظر ساعات طوال لتشتري كتبها، لو كانت هذه الطوابير تنتظر لتحصل على الكتاب مجاناً لبقيت المؤلفة ربة بيت فقيرة تحاول جهدها أن توفر لعائلتها الطعام والمسكن.

لدي خطة سرية لتأليف عمل أدبي علي شاكلة هاري بوتر وقد يتفوق عليه وسوف يكتسح الشارع الأدبي العربي من

الخليج الثائر إلى المحيط الهادر؛ هل يوجد شارع أدبي عربي؟! وأهم ما في كتابي هذا القادم أنه سوف يباع فقط ولن يهدى - إلا طبعاً للأصدقاء والأهل والأقارب وأصدقاؤهم وأصدقاء أصدقائهم وإلى رجال الأدب الذين أهدوني كتبهم وإلى كتاب الأعمدة في الصحف وهؤلاء مهمون جداً فهم لن يكتبوا عن عمل ما إلا لو أهدي لهم العمل عندها سوف يقرظونه ويمتدحون كاتبه - أما إذا لم يهد لهم المؤلف عنهم سيتجاهلونه حتى لو كان بقيمة مأساة الملك ليرلشكسبير. هؤلاء فقط الذين سأهدي لهم كتابي هذا!!

المؤلف الذي أنوي كتابته موجود في رأسي الأن وما علي إلا أن أشمر عن ساعد الجد وأبدأ. على الأقل بداية الكتاب موجوده الأن وقد جاءتني بيسر وسهولة دون أي مجهود مني، وهي كالتالي هممت ذات مرة أن استحم - يعني آخذ دش - ولا أعرف كلمة بديلة عن الدش هذه، وأيضاً بالمناسبة أنا استحم أو آخذ هذا الدش كل صباح، وأحياناً كل مساء وليس كما يعتقد ذلك الصديق الذي أرسل لي على الجوال يهنئني بعيد الفطر ولم ينس أن يذكرني أن أقوم بالإغتسال السنوي الذي أؤديه مرة واحدة كل سنة!.. المهم فتحت الدش - أتمنى لو أجد كلمة بديلة للدش هذا ولعل كلمة «الشطافة العليا» حيث يوجد بالحمام شطافة للجزء الأسفل من الجسم، أقول لعل الشطافة

العليا تكون مقبولة. وبالمناسبة انتشرت الآن وبشكل وبائي موضة الإتيان بكلمات جديدة يؤلفها أصحاب أعمدة الصحف - وأتمنى لو كنت جمعت بعضها لأنها كلمات غريبة مهجنة لم نسمع بها من قبل. ولكي لا أسمح لأحد أن يكون أشطر مني فإنني سوف استخدم بدلا من الدش كلمة «السح» وهذه كلمة عربية أصيلة تعني نزول المطر غزيراً متواصلاً وهي كلمة أستخدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما كان يقوم بصلاة الاستسقاء ليبعث الله تعالى المطر سحاً غدقاً. لكن الكلمة للأسف عبث بها عندما طلع علينا مطرب شعبي يغني عن السح الدح مبو.

ونعد من جديد إلى استئناف الحديث عن فكرة الكتاب الذي سوف أؤلفه وسوف يتفوق في نجاحه على سلسلة كتب هاري بوتر خاصة وأن الأفكار موجودة ولم يبق إلا أن أشد العزم وأعزل نفسي عن الناس واكتب!.

وبداية الكتاب هذا حدثت بالصدفة وهي كالتالي، واحتفظ لنفسي بحق الملكية: ولجت الحمام ودخلت وسط حوض الاستحمام - لا أريد أن استعمل كلمة البانيو ولكن أين المهرب ومعظم ما نستخدمه في حياتنا من أدوات حديثة هي مخترعات غربية عجزنا حتى عن أن نجد لها مرادفات عربية

- طبعاً لا أنس هنا كلمة الشاطر والمشطور وبينهما طازج وتعنى الساندويتش. وهذه أظنها نكتة وليست صحيحة. ألطف تعليق تسمعه الأن من بعض ذوي العقول العبقرية العربية هو. أترك علوج الغرب يكدون ويكدحون ويأتوا بالجديد المفيد ونحن نستفيد من اختراعاتهم وجديدهم دون أي مجهود من جانبنا. أنهم مسخرون لخدمتنا!!.. عاشت العقول العربية العبقرية!..

مرة أخرى أعود إلى الاغتسال وكيف وقعت بالصدفة على بداية الرواية التي سأبدأ بها كتابي الرهيب المنتظر. وقفت عارياً تحت السح - أذكرك بأنه الدش - وفتحت الماء وأمسكت قارورة الصابون السائل - الشامبو - لغسيل رأسي. كان الماء ينهمر ومن خلال صوت الماء المسكوب سرا إلى سمعي صوتاً صغيراً رفيعاً سريعاً غاضباً يشبه الصوت الذي يحدثه التماس سلكين كهربائين رفيعين سالب وموجب. التفت يمنة ويسرة لأعرف مصدر هذا الصوت الغريب ولم أر شيئاً - واستمر الصوت يطرق أذني وأصغيت السمع بعد أن أوقفت الدش، وأيضاً تلفت ولم أر شيئاً، لكننى الأن أحسست أن شيئاً ينقر على أصابع رجلي. نظرت إلى أسفل ورأيتها.. فأرة وقد أطلت برأسها المبلول وأذنيها المتهدلتين من فتحة البلاعة وهي تشوح بيديها بغضب وعصبية. ركزت انتباهي محاولاً أن أتأكد إن

كنت ما أشاهده حقيقياً أم تخيلا. وفتحت عيني وأغمضتهما مرات عديدة وبسملت أيضاً مرات عديدة وتلفت في كل الاتجاهات وتأكدت أنني فعلاً موجود في الحمام وأقف في وسط حوض الاستحمام وأن ما أراه حقيقة هو فأرة خرجت من البلاعة وهي تنظر إلى أعلى وتخاطبني بلهجة غاضبة نارية وتلوح بيديها يمنة ويسرى وإلى أعلى وأسفل. أصغيت مرة أخرى ولم أتبين ماذا كانت تقول - نعم لقد سمعت نتفاً من كلام وليس فقط الصوت الذي يشبه الصرير. أشارت لي بيدها أن أجلس ولم يسعنى إلا أن أسمع وأطيع وقد بدأ خوفي يتلاشى قليلاً وحل مكانه العجب الشديد الذي كاد ينقلب ضحكاً مع مشاهدة حركات الفأرة العصبية التى تدل على الغضب والاحتجاج الشديدين.

جلست في الحوض بعد أن أكنت قد أوقت الماء المنهمر من الدش وكان الصابون لا يزال يغطى رأسي ووجهي وجسمي. أزحت الصابون عن عيوني ودققت النظر في فتحة البلاعة وقد عم السكون الكامل أرجاء الحمام. شاهدت الآن عن قرب الفأرة وهي تمسح الصابون عن رأسها ووجهها وتنظف أذنيها ثم تعيد مسح وجهها بيديها وترمش بعينيها بسرعة لتطرد أي ذرات ماء علقت بينهما؛ بقيت أنظر مشدوهاً إلى الفأرة دون أن أنبس بكلمة وكان العجب لا يزال يمنعني من الكلام.

خرجت الفأرة الآن من فتح البلاعة واقتربت مني حتى وقفت بين رجلي مسحت آخر قطرات من الماء من وجهها وأذنيها اللتين ما زالتا متهدلتين ثم نظرت إلي بتحد واضح ورفعت يدها تهز أصبعها السبابة في وجهي قائلة: أوف، يا ساتر، يا أخي هلكتونا بمياهكم وصابونكم وقرفكم الذي تصبونه كل يوم فوق رؤوسنا. طول النهار والليل وأنتم فاتحين صنابير مياهكم على الآخر دون حتى إعطاء أي اعتبار لكل محاولات الدعوة للاقتصاد في استهلاك المياه. ولما فتحت فمي لأقول أن ذلك ليس من شأنها أشارت بيدها إشارة صارمة قوية قائلة: أعرف ماذا ستقول. هذه مشكلتكم يا أهل هذه البلاد، كل واحد فيكم يعتبر نفسه أمبراطوراً.. لكن في الأمور الغلط.. أين المسئولية وأين الحس بالانتماء. أين الاعتبار الذي يجب أن تظهروه نحو الجماعة.. يا رجل أنت لا تعيش وحدك.. فكر بالآخرين، فكر حتى بأهلك وأولادك ومستقبلهم، ساهم في بناء هذا المستقبل.. لكن يا أخي لماذا أوجع رأسي بمشاكلكم وبلاويكم؟ أنا هنا فقط لأعلن لك بكل وضوح أن لي أيضاً حياتي وحريتي ولا أسمح لأحد أن يعتدي علي وعلى جامعتي من الفئران.

لم أعد أعرف إن كان علي أن أضحك أو فقط أبقى صامتاً وأستمع لكلام الفأرة التهديدي وهي ترفع رأسها وتخفضه وتحرك يديها بعصبية وتهديد واضحين.

أخيراً استطعت أن أنطق قائلاً: على كل حال إن لم تكوني جنية فأنت مجرد فأرة ولو كنت تتكلمين، وصراخك وتهديدك هذا لن يخيفني.. ثم عن ماذا تدافعين.. عن بلاعة.. الآن سآتي بأي بخاخ وأقضي عليك واستريح. ضحكت الفأرة باستهزاء قائلة كلامك هذا لا يستحق حتى الرد عليه ولو لم أعرف أن عقلك قاصر لكنت أخبرتك من أكون وأين أعيش. إن كل بيتك هذا - وأنا أعرفه جيداً - وحمامك هذا المتهالك وحنفياتك التي تسرب الماء طوال اليوم دون أي اهتمام منك لإصلاحها، كل هذا ليس إلا صفراً كبيراً لما أملكه أنا وجماعتي ونتمتع به من حياة راقية مرفهة يستحيل على مثلك أن يطالها حتى لو عشت ألف سنة... اندهشت من كلامها ولم أصدق للحظة واحدة أن للفأرة مكانا آخر غير البلاعة وبعض جحور في المنزل وكان ردي عليها بهذا المعني.. ولكن ولدهشتي الشديدة قفزت الفأرة إلى صدري وبمجرد لمسة من يدها على جبيني غبت عن الوعي وعندما استيقظت وجدت نفسي في مملكة الفئران....

هكذا سوف أكتب عن مغامرتي في عالم الفئران ولكن متى سيحصل هذا علم ذلك عند الله تعالى...

قلت في مكان آخر من هذا الكتاب أن هناك أسباباً عديدة تقف كعقبات أمام كاتب المذكرات خاصة من عمل قريباً من

القمة. وحيث أن طبائع البشر وسلوكياتهم لا تختلف كثيراً من زمن إلى آخر وإن من تحصيل الحاصل أن يسعى كل إنسان عاقل إلى الارتقاء والعلو فإنه من الطبيعي أيضاً أن يكون التنافس شديداً للحصول على رضا صاحب الأمر طالما شبهت التنافس والتسابق بين الموظفين للتقرب من القمة - طالما شبهته بالفراشات التي نراها بالمئات وهي تتطاير حول النور الساطع وكيف تحترق من بينها تلك التي تقترب من الضوء أكثر مما ينبغي.

هناك أيضاً الصف الثاني والثالث من المسؤولين، ومن حسن الفطن أن ينضم الصغير منذ البداية إلى كنف أحد هؤلاء. هناك طبعاً المقدرة - لا يمكن لأحد أن ينكر أياً من تلك المؤهلات. لكن يبقى هناك حقيقة مؤكدة وهي أنه من الشطارة أن تلوذ بأحد الكبار. ولكي لا أقع في المحظور أعلن أنني لا أتكلم إلا عن نفسي وعن تجربتي. ولأنني آليت على نفسي منذ البداية أن أقول الصدق في كل ما أكتب فإنني أقرر هنا واقعاً طالما حيرني أشد الحيرة. فأنا عندما عملت في المراسم الملكية كنت أجد أن معظم المسئولين كانوا في الحقيقة يبدون نحوي عطفاً وحباً واضحين وكان بعضهم يعبر عن ذلك صراحة.. لكن الأيام تمضي وأبدأ ألاحظ أن ذلك الشعور نحوي بدأ يتغير ويحل محله جفاء أو شيء مثل الجفاء. كنت أتألم لذلك كثيراً

خاصة وإنني حسب ما أعتقد لم أتغير أو آتي بما يوجب الجفاء. هذا اعتقادي وربما أكون مخطئاً، وخطأي الأخر أنني بعد العمل الرسمي أحب أن أكون مع أهلي ثم أصدقائي الذين نشأت بينهم ودرسنا معاً في المدارس والجامعات والدراسات العليا. لم يكن لي صديقاً قريباً في المراسم الملكية أو الديوان الملكي - ولا ألوم غيري عن سبب ذلك ولكن كما قلت كان الأصدقاء من خارج عالم الوظيفة.

ثم قد تكون هناك أسباباً أخرى لذلك الجفاء الذي أصبحت أشعر به من إناس كانوا في البداية غاية في اللطف والرقة. يتهمني كثير من الناس إنني «نافخ خشتي» و«وشايف روحي»، وهذه تهم ظالمة حقيقة لأنني لست كذلك لكن المشكلة أنه في أثناء العمل وكلما كانت المواقف صعبة كلما ظهر التجهم على وجهي. ويبدو أنه حتى دون أي مواقف صعبة فإن تعابير وجهي هي بطبيعتها حادة أو متجهمة.

ولقد عانيت كثيراً من ذلك من أناس لم يعطوا أنفسهم فسحة من الوقت ليعرفوني جيداً واتخذوا قراراتهم بأنني متعجرف وأحمد الله تعالى وأترحم على الملك خالد الذي لم يكن من ذلك النوع من الرجال إذ قال لي ذات مرة مازحاً «وراك يا الخريجي نافخ خشتك علينا» ماذا يمكن أن يكون جوابك عندما تأتيك مثل هذه الملاحظة أو التهمة من ملك؟!...

لكنه رحمه الله كان خبيراً بمعادن الرجال ويعرف دخائلهم ويعرف أنني كنت واحداً من الذين عملوا معه وخدموه بإخلاص على قدر إمكانياتي.

كنت ذات مرة في ألمانيا وبينما أنا أتجول في أسواق برلين شاهدت دكاناً صغيراً في أحد الأزقة الضيقة. كان الدكان مختص بوضع صور الناس داخل مجسمات صغيرة على شكل مكعبات أو مستطيلات من البلور بحيث تظهر الصورة نفسها مجسمة يمكن مشاهدتها من كل الجوانب. ولما أبديت رغبتي في عمل صورة مجسمة لي طلب الرجل أن يلتقط لي صورة التقط أول صورة وظهر التجهم والعبوس - لا أدري لماذا أتجهم وأعبس وأنا في أجازة!...- ولم تعجب الصورة الرجل بطبيعة الحال كما لم تعجبني أنا أيضاً، وطلب صورة أخرى؛ ومثل الصورة الأولى ظهرت الثانية عابسة، والتالية لم تكن أحسن من سابقتيها مع العلم أنني في كل مرة أظن أنني على وشك أن أضحك بصوت وليس فقط ابتسم. ونال اليأس من الرجل وسأل بشيء من العصبية «ألا تستطيع الابتسام»؟ وغاظني سؤاله وقلت التقط صورة أخيرة ولا شيء بعدها فإن لم تصلح فانس الموضوع. وظننت في الأخيرة أنني فعلاً أضأت وجهي بأعرض ابتسامة ممكنة. التقط الصورة ولاحظت أنه قبل بها على مضض ثم أكمل وضعها في المجسم الصغير، والمجسم موجود على مكتبي الآن لم يود مشاهدته.

المشكلة الأخرى التي تأتي لي بالمشاكل هي ببساطة النظر. يعني الشوف. فأنا نظري ضعيف - لا أذكر في كل حياتي أن نظري لم يكن ضعيفاً دائماً، وأحمد الله تعالى كل الحمد أن أبقى لي ما يكفي من نظري لأحيا حياة طبيعية، فقد كنت في طفولتي أعاني كل فترة مما يسمى الرمد الربيعي، كان ذلك وأنا ما زلت في قرية الوالدة رحمها الله في سورية. كانت عيناي تنغلقان تماما وتتورمان بشدة لمدة تصل أحياناً إلى شهر لا أرى خلالها شيئاً. والحمد لله مرة ثانية أن أبقى لي على أكثر من خمسين في المائة من نظري، وبالنظارة تزداد النسبة. مشكلة النظر هي أن ينظر إلي شخص من مسافة ويومئ بالتحية، إلا أنني أحياناً لا أرى إن كان الشخص يحييني أم أن التحية لشخص آخر، وطبعاً حين لا أرد التحية بأحسن منها كما هو المفروض يفسر ذلك بعض الأشخاص على أنه تجاهل وعدم اهتمام وهو لا يمكن بأي حال أن يكون كذلك. وتنفجر شياطين الغضب من بعضهم خاصة الذين يظنون أنني الأولى بالبدء بتحيتهم فضلاً عن أن لا أرد التحية!..

اقترح علي بعض الأشخاص أن اكتب مذكراتي الآن وأقول فيها كل ما أريد قوله دون أن أنشرها إلا إنني رفضت الفكرة لأنني لا أعتقد أنني الوحيد في الدنيا الذي لاقي منافسة شديدة بل أحياناً حرباً لا هوادة فيها، وما يعزيني هو أن الذين

خشوا على مناصبهم أو مستقبلهم مني أثبتوا لي أنني رجل لدي من المؤهلات والمقدرة أن أكون منافساً شديداً لهم. وبالتالي نحن كمسلمين مؤمنين ندرك أن الله تعالى قدر للناس ماذا سيكونون ويفعلون وهم في بطون أمهاتهم ولا شيء يغير ما أراده الله.

ولكن ما زلت وسوف لا أزل تعصف بي الحيرة بسبب تنكر بعض الرجال لي واستبدال مودتهم بجفاء ظاهر. ويعلم الله أنني لست حانقاً أو حاقداً على أحد ولكن أتمنى لو بعض أولئك الذين كانوا يكنون لي كل المودة والعطف وصاروا فجأة يتجنبوني أو اختفت الابتسامة من وجوههم إذا قابلوني، أتمنى لو أن أحداً منهم باح لي بالسبب أو الأسباب التي أبدلت المودة بضدها. أقول هذا لأنني أعرف نفسي أكثر من معرفة الآخرين بي. وأعرف أيضاً أنني بوجه عام لست من الرجال الذين ينفر الناس منهم. بل العكس هو الصحيح فأنا أتمتع والحمد لله بمحبة كبيرة وصادقة من عدد كبير من الأصدقاء الذين أعتز بصداقاتهم كما يعتزون بصداقتي. والصداقة كما قد لا يخطر على بال بعض القراء شيء مهم جداً ورئيسي في حياتي، ولا أستطيع أن أعيش بدون أصدقاء. لقد سألني كثير من الأخوان أن كنت سأهجر الرياض الآن بعد التقاعد خاصة وأن أولادي يعيشون في جده وأخي وأخواتي يقطنون المدينة. كان جوابي

السريع أنني لا يمكن ولا أفكر بهجر الرياض فأصدقائي كلهم أو معظمهم يعيشون بالرياض وسعادتي القصوى أن أكون قريباً منهم.

جرت لعادة أن تنتقل الحكومة في فصل الصيف من الرياض إلى المنطقة الغربية، الطائف أو جده، وبالتالي ينتقل معها كل أو معظم العاملين في الدواوين الحكومية ذات العلاقة. وعلى هذا فقد أمضيت أكثر من خمس وثلاثين سنة أقضي الصيف خارج مدينة الرياض. وحدث ذات صيف أن قدمت للرياض لسبب ما، كان الوقت منتصف أشهر الصيف القائظ وكان بيتي كما جرت العادة مقفل معظمه إلا من وجود حارس يعني بالحديقة وبعض الضرورات الأخرى. قصدت أحد الفنادق، وفي المساء عندما لم يكن لدي ما أعمله أخرجت مفكرة تلفوناتي وبدأت أتصل بالأصدقاء. كانت الإجابة في كل مرة أن الشخص غير موجود في الرياض. ربما كانت مجرد صدفة أنني لم أجد أحداً من الأصدقاء فجميع الذي تجمعني بهم صداقة صدف أن كانوا إما خارج المملكة أو خارج الرياض. أدركت لحظتها أن المثل الذي يقول: «جنة من غير ناس ما تنداس» صحيحاً بكل المعاني، لقد عرفت في تلك الليلة وأدركت أن البلد ليست شوارع ومنازل فقط بل هي الناس: الأصدقاء والأهل والأحباب؛ فهؤلاء إن فقدوا فقدت الحياة معناها. بدت الرياض لي مدينة كبيرة فقط وبدا لي أن كل الناس والسيارات

والأزدحام والشوارع والمحلات الكبيرة لا تعني لي شيئاً. لقد كنت غريباً وحيداً في عاصمة بلدي!

الإنسان بطبعه مخلوق اجتماعي - هكذا تكونت المجتمعات وهكذا استمرت تعيش، وما أقوله هنا ليس اكتشافاً جديداً إنما هو تأكيد لحقيقة وجدت منذ خلق الإنسان على هذه الأرض. والناس أحياناً يجدون متعتهم فقط في تجمعاتهم يتفرجون على بعضهم البعض ولا شيء غير ذلك. وإلا كيف نفسر مثلاً تجمع الناس في منطقة السوليدر في بيروت وهي مجرد مقاهي رصت في شارع أو شوارع لا يوجد فيها شيء آخر. يجتمعون في مجموعات صغيرة يشاهدون بعضهم البعض ويتفرجون على بعضهم البعض. لم يفكروا في السفر مثلاً إلى منتجعات تتوفر فيها الخضرة والماء والراحة والبعد عن صخب المدينة وشوارعها المكتظة بالسيارات والمشاة والحر الشديد أحياناً. لكنها غريزة القرب من الناس والعيش بينهم والاستمتاع بمجرد الفرجة على الآخرين الذين بدورهم يتفرجون علينا. اقترح على أم نزار أحياناً أن نسافر في عطلتنا إلى منتجع هادئ على شاطئ بحر أو وسط الخضرة والأشجار حيث الهدوء والراحة التامة واستنشاق الهواء النقي. ويكون جوابها في كل مرة أنها تعيش طوال أيام السنة في هدوء وسكون بيتها وأنها تنتهز فرصة الأجازة لتعيش وسط الناس وتستمتع

بضجيجهم وصغب شوارع المدن الكبيرة وازدحامها؟.. ولما قلت لها أن الرياض مدينة كبيرة وشوارعها مكتظة صاخبة وضاجة لم تجب بل رمقتني بنظرة صارمة أسرعت على أثرها أقول إنني أنما كنت أهذر فقط وأنها تستطيع أن تسمى أي بلد صاخب ضاج غير الرياض وسوف نسافر إليها!.

لقد أمضيت كل السنوات التي مرت من عمري وأنا أنتظر وأتوقع أشياء معينة تحدث لي في حياتي لكنها كانت دائماً تأتي عكس ما أتوقع - والحقيقة المرة ولحسن حظ الآخرين أنني أحرز قصب السبق في المرات التي أصبت بها بخيبة الأمل. ولأختصر المسافة على القارئ - إن كان هناك أي قارئ لهذه الهترشة - فأشرح ما أعنيه. ظللت كل سنوات عمري الفاعلة أي التي كنت أعمل بها قبل التقاعد أعتقد أنني مهما كانت معاناة الوظيفة والحياة بشكل عام فإن هذه - كنت أقول لنفسي - سنوات أداء الواجب والدور المناسب في خدمة الوطن وسوف أنتقل بعدها لحياة سهلة مرفهة سوف أعيشها بعد أن أتقاعد. وتقاعدنا. والأن اسمحوا لي أن أعدد بنود السعادة التي أعيشها بعد التقاعد. أول كل شيء ليس صحيحاً مهما ادعي المدعون - لست منهم - أن التقاعد راحة كاملة وسعادة خالصة. هناك في البداية صدمة التقاعد، فأنت عشت ما عشت في أبهة الوظيفة وتبخترت في دهاليز السلطة ووجاهة

المنصب وتمتعت بتزلف المتزلفين وانتشيت بمدائح الأنتهازيين وطلاب المصلحة، ثم فجأة وبعد كل هذا وذاك تسقط من عليائك وتجد نفسك خارج دائرة الضوء بعيداً عن الحياة النشطة التي اعتدت عليها سنوات طويلة. سوف تحتاج قبل كل شيء إلى وقت لإعادة التوازن. وهذا يذكرني بطرفة خفيفة تحكي عن رجل سقط من شرفه منزل وسط الشارع واجتمع الناس حوله يسألونه ماذا حدث، ماذا حدث، نظر الرجل حوله ثم وقف ينفض الغبار عن ملابسة والناس لا تزال تسأل ماذا حدث؛ هنا نظر الرجل إليهم ورد بهدوء قائلاً: أنا مثلكم لا أدري ماذا حدث فأنا كما ترون وصلت للتو!.

دعوني أقرر شيئاً هاما هنا وهو أنني وإن كنت أتحدث عن الخروج من الوظيفة أو التقاعد إلا أنني لا أقرر أن التقاعد شيئاً سيئاً بل بالعكس فهو بالإضافة إلى أنه أمر محتم إلا أن له مزايا كثيرة طيبة أولها الراحة والتخلص من المسؤلية وهذه بذاتها نعمة كبيرة لمن حمل هم الوظيفة؛ إن لنفسك عليك حق وكل إنسان ساهم في أداء خدمة مفيدة لبلده لهو جدير بأن يعيش بعد التقاعد حياته الخاصة مرتاحاً من هم المسئولية. إذن أين هي المشكلة؟ المشكلة إن السذج أمثالي يعتقدون أنهم ما داموا أدوا واجبهم سواء في عمل رسمي أو خاص وساهموا ما وسعتهم المساهمة به في مسار الحياة فإن أوان الراحة

التامة والنوم العميق الذي لا تتخلله الكوابيس، صار من حقهم كاملاً غير منقوص، وأن من حقهم أيضاً أن تصبح حياتهم بعد ذلك متعة صافية متصلة!. لكنهم ويا للحزن سرعان ما يكتشفون أن ذلك ليس إلا سراباً خادعاً، وأن الكوابيس لا زالت موجودة لكنها من نوع غير تلك التي كانت تغشاهم أيام الوظيفة.

أول شيء اكتشفته بعد أن خرجت من الوظيفة أنني قد غدوت شيخاً هرماً قد تعطلت كثير من قدراته الجسمية والذهنية المهمة والأقل أهمية، وماذا تنتظرون من عجوز تخطى ..... من عمره! عندما تكون على رأس العمل يأخذك الواجب والمسئوليات عن التفكير في نفسك وفي عمرك وكم أصبح وكيف أمسى. هذه حقيقة يعرفها كل الذين تقاعدوا. العمل على جهده ومشقاته ينسيك نفسك ويبعث في أطرافك الحيوية والنشاط؛ وهذا ليس غريباً لأن كل وظائف الجسم تكون نشطة متيقظة تؤدي أدوارها المتعددة ويتجدد بذلك نشاطها. ولكن ما إن تترك العمل حتى تسترخي كل أعضاء الجسم ولا تلبث أن تستسلم لكسل لذيذ تستمتع به عندما تتذكر كل صباح أنه ليس عليك أن تذهب للدوام. شعور لذيذ جداً إذا دام. لكنه بكل أسف لا يدوم. فأنت تبدأ أولاً بتذكر عمرك. إنك أصبحت عجوزاً وإذا حاولت نسيان هذه الحقيقة فسيذكرك ظهرك الذي يصعب عليك استقامته عندما تقوم من كرسيك، كما

تذكرك أيضاً مفاصلك التي فقدت جزءاً من سوائلها وأنكمشت غضاريفها وأخذت تحتك ببعضها البعض وتئن أنت من جراء تحرشها الدائم ببعضها البعض. وتستمر تكتشف كل يوم إنك لم تعد ذلك الرجل النشيط الذي يقفز السلالم ويدخل حوض الحمام (البانيو) برشاقة وخفة. تنس دائماً إنك لم تعد شاباً قوياً وتأتي بنفس الحركات التي اعتدت عليها طوال حياتك ولكنك في كل مرة تصدم وتذكرك أطرافك وظهرك أن عليك أن تتحرك ببطء وحذر وأن الجسم الذي يحملك قد وهن العظم منه وأنه إن كان بقي في رأسك شعر فهو قد أبيض وصارت الشعرات من الدقة بحيث تشبه خيوط النايلو وإنك لو جذبتها ولو على طريقة معادية لاستجابت لك ولخرجت بيدك كما لو كانت مغروسة بعجين، ولا حول ولا قوة إلا بالله!... أي متعة هذه التي سأتمتع بها ما بقي لي من وقت في الدنيا!.. هذا وقد ذكرت المفاصل والضعف العام الذي يصاحب السن ولم أتطرق إلى بقية الأمراض العديدة التي أخذت تتقوى على الجسم الضعيف وتعبث به.

ومع ذلك فإن حكاية الهرم والأمراض تهون أمام أمور أخرى سأتطرق لها حالاً وأضيق صدر أي قارئ تخطى الخمسين. ولكن قبل ذلك سأحكي حكاية صغيرة سمعتها من أحد الأخوان وكان سبقنا للدراسة في ألمانيا. يقول الأخ أنه كان

يسكن في غرفة لدى سيدة ألمانية عجوز، وفي أحد الأيام وفي الصباح الباكر سمع طرقاً على باب غرفته وكان الوقت ما زال فجراً. استيقظ مذعوراً لأنه ظن أن حادثاً جللا قد حدث. وعندما فتح الباب فوجئ بسيدة البيت تطلب منه إن كان لديه فكة مائة مارك لأن ابنتها الموظفة في بلدة غير التي يوجد بها بيت أمها، جاءت لزيارة والدتها وأن الأم قاضتها خمسين مارك لكن لم تكن لدى البنت إلا مائة مارك وتريد الأم فك المائة!..

مهما حكينا ومهما اشتكينا فإنه يكفينا من نعم الله العديدة علينا أننا لسنا كأولئك الناس الذين تقاضى الأم منهم ابنتها على بياتها عندها لليلة واحدة. نحن نفني أنفسنا بسبيل أولادنا وأحفادنا. هل فهمتم الآن لماذا أتيت بالحكاية. أتيت بها لأقول إنني عندما خلصت من هم الوظيفة والواجبات الرسمية فإنني لم ولن أخلص من هم أولادي وأحفادي وبقية أفراد أسرتي. وأنا أحمد الله على ذلك وطالما أتذاكر مع أصدقائي بعض الثوابت الاجتماعية مثل الالتئام الأسري وينابيع الحب والحنان الدافقة التي تمتلئ بها نفوسنا نحو أسرنا. وطالما رددت في جالساتنا أننا وقد أنجبنا أولاداً وبناتاً فسنبقي نحمل همومهم وهموم أولادهم إلى أن نموت نحن.

أعود بالقارئ إلى أول الفقرة السابقة وهي كشكول الأمراض الذي يشعر به المتقاعد فجأة بعد أن يترك العمل

ويخلد إلى بيته. طالما تمنيت لو اقتصر الأمر بالنسبة لي على تيبس الأطراف وتشنج العضلات ودسك الظهر وعملية الركبة التي لم تكن ناجحة، أقول لو كان الأمر اقتصر على ذلك وكانت باقي شئوني طيبة لكنت في منتهى السعادة ولما سمحت لنفسي بالشكوى المعلنة. إنما المسألة أكبر من ذلك. تتقلب الحياة رأساً على عقب عندما ترى أحداً من أبنائك أو بناتك يتعذب وتقف أنت مكتوف الأيدي لا تستطيع المساعدة. هذا هو العذاب الخالص. ليس العذاب لأنك تقاعدت أو أنك تشتكي من علة ما في جسمك. أكرر مرة بعد مرة أن التقاعد بحد ذاته يجب أن يكون مناسبة للمتقاعد ليعني بنفسه ويعيش ما بقي له من أيام أو سنين في هدوء ودعة، ولكن الحكاية أنه كما قلت ما نواجهه من هموم الحياة عامة وما يحيق بنا من هموم شخصية. أول هذه الهموم أنك تجد نفسك في أغلب الأحيان وحيداً إلا من زوجتك التي غالباً ما تكون قد بدأت تعاني مثل ما تعانيه أنت من المشاكل التي تأتي مع السن: أنواعاً من الأمراض والشكاوي التي لا تنتهي. ومرة أخرى وثالثة ورابعة ليت هذا كان كل أسباب الشكوى. فأنت تنظر حولك وتجد أنك أصبحت وحيداً مع زوجتك في بيت واسع كبير خلت غرف الأولاد منهم ومن صخبهم الممتع. تسير بحذاء الغرف التي كان يقطنها الأولاد وقد خلت من ساكينيها ومنيت بالصمت الكئيب. أين إذن

السعادة التي تأتي مع التقاعد؟.. لقد ذهب التقاعد بالنفوذ والسطوة وخلا البيت من سكانه وعم الصمت الحزين.

هناك كلمة بالإنجليزية أسمها نوستا لجيا: وترجمتها تعنى الحنين إلى الماضي. يقال أننا دائماً نحن إلى الماضي، لكنه ربما كان الماضي دائمًا أجمل من الحاضر، ولو أن ذلك لن يعجب كل الناس. أنا شخصياً أرى أن الأيام التي مضت من حياتي أحسن مليون مرة من التي أتت بعدها. خذ فقط السن فقد كبرت الأن وانحني ظهري وشاب رأسي. والأدهي من كل ذلك أن الزوجة أيضاً ... ولن أجرؤ على إكمال الجملة لسبب كلكم تعرفوه؛ أصبحت أنا وهي وحيدين في منزل واسع شاسع ازداد في عيوننا اتساعاً بعد أن خلا من سكانه، لا شيء في هذه الدنيا يضاهي بجماله وروعته صخب الأطفال وضجيجهم في البيت. صدقوني أنه أجمل ما يطرق السمع - ولكن متى، ندرك هذا؟ ندركه عندما ينقطع هذا الصخب ويسود الصمت. سوف يصم آذانك الصمت الرهيب الذي يصيب البيت بعد أن يغادره الأولاد، بعد أن يكبروا. وأنا هنا لا أفرق بين أولادي عندما كانوا صغاراً وبين أحفادي الذين ما زالوا صغاراً. عشت وزوجتي فترة السكون هذه فيما بين زواج الأبناء وبين إنجابهم لأطفالهم. تعبنا من الهدوء والسكينة. لا كأس تكسر ولا طاولة تقلب ولا كتب ومجلات تبعثر أو تختفي.. كل شيء ساكن ثابت

في مكانه. ولا يقول لي أحد أن الأطفال ما وراهم إلا الدوشة ووجع الدماغ، لأن هذا ليس صحيحاً في مطلقه، فأنت تجد سعادة غامرة حتى وأنت تطردهم من حجرتك ويتضحم لديك شعور العظمة والدكتاتورية الرحيمة التي تداعب رأسك الذي خلا من الشعر وأنت تأمر بناتك أو زوجات أبنائك أن يسرعوا بإخراج أولئك العفاريت من غرفتك. ثم بعد أن يخرجوا كلهم ويهدأ المكان تبتسم بارتياح وتدعو الله تعالى أن يحفظهم وأباءهم وأمهاتهم ويهبهم الحياة السعيدة المديدة.

ذكرت في كتابي الأول أن لدي ولدين هما نزار وأياد وابنة واحدة. يقطن نزار وأياد في جده بينما تسكن ابنتي في الرياض. وحيث أنني أحكي حكايات ما بعد التقاعد، وأنا أقضي كما ذكرت وقتاً أطول في الرياض لأنني أعتبرها بلد الإقامة الرئيسية، فأنا لهذا لا أحصل دائماً على ما أتمناه من وجود الأولاد والأحفاد عندي كلما رغبت في ذلك. فأولئك في جده وهؤلاء في الرياض أشاهدهم في نهاية الأسبوع وليس في نهاية كل أسبوع ماذا بقي إذن من متعة التقاعد؟ بقيت هذه الذكريات التي أخوض الأن غمارها وأتخبط بين متاهاتها ودهاليزها أمر على أبواب عديدة أرفع يدي لأقرع أجراسها وأتردد فقد تنفرج الأبواب عن أعشاش للدبابير من الأحسن أن تبقى خلف الأبواب الموصدة.

أشرت في مكان ما من هذا الكتاب إلى المركزية الشديدة المتفشية في الدوائر والمصالح الحكومية وعلى كل المستويات. فرئيس العمل يكون هو الحاكم المطلق في دائرته كبرت تلك الدائرة أو صغرت، وفي اعتقادي لا يوجد لدينا إلى الآن ما يسمى مسؤلية الوظيفة أو واجباتها وحدودها وماذا لها من حقوق وعليها من واجبات وظيفية؛ هذا كله يقرره رئيس الدائرة فهو السيد المطاع الذي لا يستطيع أي أحد من الذين يعملون معه أن يخالفه الرأي أو يتخذ قرار مستقلاً عنه، هذا طبعاً هو الغالب السائد لكن هناك رؤساء لا يترددون في إعطاء صلاحيات واسعة لمن يعملون معهم ويأخذون برؤاهم. قد يقول قائل أن هذا الكلام قد قيل مئات المرات وكل الناس تعرفه ولكن عندما يمر الإنسان نفسه بتجربة استمرت سنين عديدة وهو يئن من إصرار رئيس العمل أن يفرد كل إنجاز لنفسه دون أن يعترف بوجود عديدين آخرين ينجزون معه العمل وأن من طبيعة الأشياء أنه لا يوجد إنسان واحد يستطيع بمفرده أن يقوم بكل أعمال دائرته، عندما يكون كل ذلك صحيحاً وواقعاً ويبقى الآخرون جنوداً مجهولين يصبح ذلك ظلماً فادحاً يجلب الحزن والإحباط للأخرين. لقد عملت مع رئيسين للمراسم الملكية وكلا الاثنان ما زالا على قيد الحياة، وكلا الإثنين كانا من النوع النشط الذي يحب العمل ويحب أن يريح مرؤسيه

وخاصاً أصحاب المناصب العليا مثلي أنا مثلاً، ويزيح عن كواهلهم تعب الوظيفة وهمومها!! حتى إن واحداً منهما وحرصاً على راحتي كتب برقية لمدير الإدارة يأمره فيها أن لا يسند إليّ أي عمل! منتهى الرقة والإنسانية!

أما الثاني فكان من عادته إذا سافر للعلاج أو لأجازة أن يمضي على عدد من الأوراق الرسمية المعدة سلفاً، يمضيها على بياض كما يقولون ثم إذا حان وقت العمل بمقتضاها يملؤها رئيس الدائرة المختص وتمضى في حال سبيلها. منتهى العطف والحب وهكذا فكلا الاثنين يتصرفان طبقاً لغريزة الحب! حب العمل والانفراد به والحرص على راحة من يعمل معهما. ولكن غني عن القول أن ما يسمى المركزية في العمل هو الأسلوب السائد في الإدارات الحكومية جميعها وكل رؤساء الإدارات كبيرة وصغيرة يمارسونها وكأنها الشيء الطبيعي ويزداد التمسك بها إذا كان الرؤساء من النمط الذي أذكره.

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**﴾ صدق الله العظيم جاءت هذه الآية في سورة (الحجرات الآية: ٦). وتقول الحكمة وما آفة الأخبار إلا رواتها... هل هو بيت شعر؟ قلت إنني اتفاجأ بل وأحزن حزناً شديداً واكتئب عندما أجد من كانوا يهشوا ويبشوا

في وجهي قد أصبحت وجوههم تتجهم وتعبس إذا ما رأوني؛ ولا زلت أعجب لهذا كما أنني أتيت بما عندي من أسباب وتبريرات وأكدت وأؤكد الأن أنني لم أقترف ذنباً - على الأقل فيما أذكر - بحق أي أحد أصبح يتجهم عندما يراني واختفت البسمة من فوق وجهه. قد يتهمني أحد بالبرانويا وهي على ما أعتقد تضخيم الأشياء والظن غير الصحيح بما تجري عليه الأمور. لكنني وكلما حاولت أن أقنع نفسي أنه ليس هناك شيء من هذا تصفعني الأحداث والمواقف التي لا سبيل إلى شرحها بغير هذا الشرح.

كتابة المذكرات عمل حذر - والكلمة أكتبها وبذهني الكلمة الإنجليزية (Trieky) يعني أن كاتب المذكرات قد يشط هنا أو هناك أو يلج مدخلا لا يجب أو لا يستجب الولوج إليه. الشيء الآخر في الكتابة، هو اختيار ما يكتب وما يترك - بمعني ما يستحق أن يسجل وما لا يستحق وما يجوز الكتابة فيه وما لا يجوز. ولقد حثني كثير من الإخوان والأصدقاء أن أكتب عن بعض ذكرياتي وهأنذا أفعل ولكنني أقول لهؤلاء الأصدقاء أنه قد تمضي أيام وأسابيع وشهور في أي مجال من مجالات العمل دون أن يكون هناك شيء يستحق الكتابة عنه وما يسجل هو الخارج عن المعتاد الذي يظن الكاتب أنه يستحق التسجيل لأن به شيئاً غير روتيني، وإلا فعملي بالمراسم الملكية لا يختلف

كثيراً عن غيره من الأعمال الوظيفية. فمثلاً نحن في المراسم الملكية ننظم برنامج الملك من حيث النشاطات الداخلية والخارجية. استقبال كبار الضيوف، ترتيب الإستقبال في المطار وإقامة الولائم والدعوة لها وترتيب الجلوس وبرنامج المحادثات وتبادل الهدايا والأوسمة إلخ.. إلخ بمعني أنه ما لم يكن هناك شيء مميز يستحق التسجيل فلا داعي للوقوف عنده.

ونحن في المراسم الملكية وأغلب العاملين في الديوان الملكي نحرص دائماً على الظهور بمظهر رسمي، يعني المشلح شيء أساسي لعملنا. الأن بعد أن تقاعدت وقلت المناسبات التي احتاج فيها إلى المشلح أفتح الدولاب بين فترة وأخرى وألقى نظرة على مشالحي التي أحيلت مثلي للتقاعد والتي يخيل إلي أنها تطأطئ رأسها ربما حزناً على المجد الغابر!. ومن عادة ملوكنا وأمرائنا الكبار رحم الله من صار منهم بجوار ربه وأطال الله في أعمار الأحياء، من عادتهم أن يجلسوا إلى مكاتبهم بمشالحهم. أما نحن الموظفين فإن ارتداء المشلح هو من الأساسيات طالما كنا في ميدان العمل. أذكر مرة حينما زارنا السيد سبيرو أجنيو وهو كان نائب الرئيس الأمريكي نكسون أن برنامجه اشتمل على زيارة له إلى استراحه في أبحر الشمالية في جده. كان الوقت عصراً والجو لطيفاً وذهبنا وكان أمير منطقة مكة المكرمة يومئذ سمو الأمير فواز بن عبدالعزيز.

طبعاً كان الجميع متمشلحين، ووصل السيد نائب الرئيس وإذا هو يلبس قميصاً سبور نصف كم وبنطال بسيط - وأسرعنا كلنا عندما رأيناه إلى خلع مشالحنا لنجاري الجو المتحرر من الرسميات.

أحب أن أتوقف قليلاً هنا عند السيد أجنيو. عندما جاءنا في تلك الزيارة الرسمية كان نائباً لرئيس أمريكا السيد ريتشارد نكسون وجاء بكل العظمة والأبهة التي يحب الأمريكان أن يحيطون أنفسهم بها أمام الآخرين. جاء معه جيش من رجال الأمن والحراسة ورجال الاتصالات وأطنان من أجهزة الاتصالات ومرافقون وغيرهم. ومما أثار الخلافات بيننا وبين الجانب الأمريكي هو إصرارهم على أن يحضر معه أيضاً سيارات مصفحة يتنقل بها في بلدنا، كان ذلك شيئاً رفضناه بتوجيهات من رؤسائنا وأصرينا أننا نملك من وسائل الحماية في بلدنا ما يضمن سلامة السيد أجنيو - وهكذا كان.

أزيد شيئاً عن حكاية السيد أجنيو هذا. هو ينحدر من عائلة يونانية وكما هو معلوم أو غير معلوم فإن الأمريكان الذين ينحدرون من عروق أنجلو سكونيه هم أصحاب الحظوة ويعملون على بقاء المناصب الرئيسية في أيديهم. وكما نعرف جميعاً فإن فضيحة ووترجيت تفجرت في عهد الولاية الثانية

لنكسون وملخصها أنه أرسل أناساً من قبله يتجسسون على أسرار الحزب الجمهوري في مكاتبهم التي كانت في منطقة أسمها ووترجيت. وعندما أدرك كبار رجال الحزب الديموقراطي أن نيسكون سيسقط على أثر الفضيحة وجدوا أنه لا يليق بالتراث الأنجلو ساكسوني وبعراقة المهاجرين الأول إلى العالم الجديد، لا يليق بهم أن يرأسهم رجل يوناني، وعليه طلعوا لأجنيو المسكين بعد نبش سجلاته الجديدة والقديمة بقصة تهربه من الضرائب في وقت ما من حياته الوظيفية. ولم يجد نائب الرئيس من يقف بجانبه وسقط قبل نكسون. وجاءوا بحيرالدفورد الذي يذكر عنه فقط أنه الرئيس الأكثر سقوطاً بين الرؤساء الأمريكيين وهنا استخدم كلمة سقوط بمعناها الحرفي، فهو لم يكن يصعد سلم طائرة أو ينزل من درج إلا يسقط قبل أن يصل الأرض. اكتب هذا الكلام والرئيس السابق فورد لا يزال على قيد الحياة عمره اثنان وتسعون عاما وهو بذلك أصبح أكبر الرؤساء الأمريكيين سنا.

أما أجنيو هذا فقد أصبح المسكين عبرة لمن يعتبر. فبعد تلك الزيارة الرسمية وما صاحبها من خيلاء القوة وعنجهية السلطة، بعد كل هذا زارنا الرجل بعد فترة بسيطة ليس كشخص رسمي بعد أن فقد منصبه ولكنه كممثل لبعض الشركات الأمريكية يبحث لدينا عن بعض المشاريع التجارية.

وبدلاً من أن كنا نتسابق بين يديه لخدمته عندما كان في منصبه الكبير أصبح الأن ينتظر عند أبواب بعض الموظفين إلى أن يسمح له بالدخول. وهذه عبرة لمن يريد أن يعتبر. ولا أقول هذا من أي شماتة معاذ الله ولكنها سنن الحياة وإن كل شيء إلى زوال ما عدا وجه الله.

أهم ما يحتاجه موظف المراسم في أي مكان في العالم هو إضافة إلى المؤهلات العادية المطلوبة، أن يكون سريع البديهة. أن سرعة البديهة هذه يجب أن تكون أهم ما يتحلى به رجل المراسم لأن المواقف الصعبة التي تحصل تكون عادة بحضور رئيس الدولة أو رئيس الدولة وضيوفه الذين من مستواه. لأضرب مثلاً على ميزة سرعة التصرف في المواقف المحرجة. زارنا صدام حسين ذات مرة وبالمناسبة عندما يزور صدام حسين أي بلد فإنه يصحب معه فقط مجموعة حرسه الخاص الذين ينزلون من الطائرة قبل نزوله ويحيطون بها بشنطهم الصغيرة التي تحتوى على رشاشات جاهزة للعمل. أول شيء عمله حرسه عندما صعدت الطائرة لاستقباله كان أن فتشوني بحركة سريعة، فهم أدخلوا أيدهم يتحسسون جسدي من تحت مشلحي. كان ذلك سهلاً ومشى الحال. لكن الحكاية التي تطلبت سرعة البديهة هي عندما جاء الملك فهد رحمه الله وكان وقتها ولياً للعهد ليصحبه إلى المطار لتوديعه بعد انتهاء

الزيارة. عندما وصل الملك جلس في الصالون الرسمي الموجود في قصر الضيافة وكنا وقتئذ في جده. نزل بعد ذلك صدام من جناحه ودخل إلى الصالون حيث كان ينتظره الملك. حسب العرف ينتظر الاثنان لبضع دقائق حيث يقدم لهما فيها فنجان قهوة حتى يتمكن بقية أعضاء الوفد والمرافقين من ركوب سياراتهم استعداداً للإنطلاق إلى المطار.

جاء رجلان من مقدمي القهوة إلى باب الصالون لأنه حسب قواعد البروتوكول يقوم شخصان بصب القهوة للضيف والمضيف في نفس الوقت. كنت واقفاً بالباب وبجانبي وقف رئيس حرس صدام. فوجئت به عندما وصل القهوجيان يوقفهما وذلك بسد الباب بجسمه. عندما أبديت دهشتي من تصرفه هذا قال أن رئيسه يشرب من نفس الدلة التي يشرب منها ملكنا!.. هكذا قالها. أجبته بأنه الأصول تقضي أن يشرب الاثنان من دلتين مختلفتين وفي نفس الوقت. إلا أنه أصر على موقفه. كل ذلك وولي العهد والرئيس جالسان في صدر المكان وينتظران وصول القهوة. وعاد الحارس يسأل أي الدلتين تلك التي يشرب منها ملكنا! أشرت إلى أحد الرجلين وقلت هذا الذي يصب القهوة لملكنا. قال إذن يدخل هو فقط. قلت لا بأس. ودفعت بالرجل الذي أشرت إليه. وما أن مشى خطوه واحدة حتى دفعت بالثاني وقلت «أسرع معه». وهكذا قدم الرجلان القهوة في نفس الوقت لولي العهد والضيف.

زارنا ذات مرة الرئيس الفلبيني الراحل جوزيف ماركوس ومعه زوجته أميلدا. جاءا في طائرتين كبيرتين وكانت تلك زيارة رسمية للمملكة. كان ذلك في عهد الملك خالد رحمه الله، وكانت الحكومة في ذلك الوقت في الرياض. بعد إنهاء الزيارة الرسمية في الرياض رغب ماركوس وزوجته الذهاب إلى جده ورحبت السلطة بذلك. قبل سفرهما دعاني الملك فهد رحمه الله وكان وقتها ولياً للعهد وأمرني أن أرافقهما إلى جده وأن أبقى عيني مفتوحة وأتأكد أن الأمور كلها تسير بالطريق الصحيح إلى أن يغادر الرئيس وزوجته المملكة. أحب أن أضيف هنا أن أجراء كهذا لم يكن روتينياً أي أنه في العادة إذا انتقل الضيف من مكان إلى آخر يرافقه إذا كان رئيس دولة الوزير الذي يكون عادة على رأس قائمة الشرف - الوزير المرافق بالمعني المستخدم؛ ويرافقه كذلك أمناء من المراسم الملكية وضباط من الحرس الملكي وأيضاً أفراد من الجهات الأمنية الأخرى. إلا أنه في هذه المرة طلب مني سمو ولي العهد أن أكون ضمن الأشخاص المرافقين وحرصني كما ذكرت أن أضمن ضبط الأمور. وصلنا جده وتوجهنا إلى قصر الضيافة وكان الوقت بعد العصر وهناك بعد أن تأكدت أن كل شيء كان على ما يرام توجهت إلى الفندق لآخذ قسطاً من الراحة. وصلت الفندق وصعدت إلى غرفتي وأنا سعيد بفترة الراحة التي

سأستمتع بها، لكنني ما كدت أن أضع المشلح من فوق ظهري إلا والتليفون يرن. رفعت السماعة وإذا الأخ محمد ناظر، مدير مكتب المراسم بجده يصرخ طالباً مني العودة حالاً إلى قصر الضيافة. أسرعت طبعاً بالعودة وقابلني محمد وكانت تبدو عليه علامات القلق الواضح وقال «ألحق يا أستاذ، هذي تبغي تخرج» قلت من هذه قال السيدة ايميلدا تريد الخروج الآن. كان الوقت آنذاك حول المغرب. وأضاف محمد «لقد اقتنعتها بالانتظار قليلاً وهي الأن في غرفتها جاهزة للخروج». طرقت باب السيدة ولما أذنت بالدخول دخلت لأجدها بكامل شياكتها وأناقتها ولكن علامات الضيق واضحة على محياها. ألقيت تحية رقيقة ولم أجلس بل مكثت واقفاً وسألتها عن وجهتها في الخروج والغرض منه في ذلك الوقت المبكر من المساء. قالت إنها مدعوة من قبل أصدقاء وتريد أن تذهب إليهم. كانت تجلس على السرير وهي بكامل زينتها. قلت لها: «يا سيدتي يسعدنا جميعاً أن لك أصدقاء في بلدنا ويسعدنا أنك مدعوة من قبلهم. لكن هناك شيئاً فات أصدقاءك أن يضعوه في حسبانهم (لا يمكن طبعاً أن أقول لها أنها هي الملامة بكل الأحوال) وهذا الشيء الذي لم يأخذه أصدقاءك في الحسبان هو أنهم لم يخطرونا قبل وصولكم إلى المملكة حتى نضعه في برنامج زيارتكم، أنت تدركين أن هذه زيارة رسمية ونحن نعاملك

فيها كما نعامل زوجك فخامة الرئيس أي ضيفة رسمية على المملكة. وكما تعرفين إنه في مثل هذه الزيارات يدرس برنامج الزيارة بدقة ويؤخذ كل شيء في الحسبان. يعني نحن نعمل بروفات لكل مكان يتجه إليه الضيوف ونرسل فرقاً أمنية ومروراً وغيره إلى الأماكن المشمولة بالزيارة ولا نترك شيئاً للصدفة. ثم إننا نعرض كل صغيرة وكبيرة في برامج الزيارات الرسمية على رؤسائنا وهم الذين لهم الكلمة الأخيرة في الموافقة أو التعديل أو الرفض. وعليه فأنت كزائرة كبيرة ولك نفس المعاملة التي نعامل بها زوجك نحرص عليك وعلى سلامتك ولا نستطيع أن نوافق على أي تحرك لك يأتي هكذا فجأة». لم يعجبها كلامي طبعاً وردت قائلة: «إن الناس الذين أنوي زيارتهم أصدقائي ولا يحتاج ذلك إلى أي إجراءات رسمية ولا إلى موكب أو غيره فأنا مدعوة بصفة خاصة». أجبتها: «ولكنك ضيفة ولست شخصية خاصة بل أنت ضيفة البلاد وفي ضيافة ملكها وحكومته. ولا نستطيع ولا يجوز أن تتحركي خارج البرنامج المعد سلفاً. وكان يسعدنا لو عرفنا مسبقا بدعوتك هذه أن أدرجناها في البرنامج ولكن الآن أصبح من الصعب جداً أن نخرج عن البرنامج المرسوم». وهكذا جلست لفترة ليست قصيرة في أخذ ورد مع السيدة ماركوس إلى أن اقتنعت أو أدركت أنه لا فائدة من أصرارها على الخروج.

عندما هممت بالخروج صافحتها وفوجئت بيدي التي كانت مثل قطعة من الثلج تلسع يدها صاحت قائلة: «أوه يدك باردة جداً» وأجبت: «الفضل يرجع لك». فضحكت وودعتها وخرجت. قيل لي فيما بعد أنها استلقت على سريرها وأخذت تضرب السرير بيديها ورجلها وتبكي بهستيرية. أدركت وأنا بطريقي مرة ثانية إلى الفندق لماذا طلب مني الملك فهد أن أرافق السيد ماركوس وزوجته.

زارنا ذات مرة العقيد القذافي وكان ذلك قبل أن يضرب عليه الحصار ويصير تنقله بالسيارات والخيام التي كانت في البداية ترفاً ثم أصبحت ضرورة بسبب المقاطعة. وصل العقيد إلى الرياض وقامت الدولة ممثلة بالملك خالد وولي العهد الأمير فهد - يرحمهما الله تعالى - بواجب الاستقبال والضيافة اللائقة. وبعد انتهاء الزيارة في الرياض دعاني سمو ولي العهد وأمرني أن أكون ضمن بعثة الشرف المرافقة للعقيد عند مغادرته الرياض إلى المنطقة الغربية. كان رئيس بعثة الشرف هو معالي الدكتور عبدالعزيز الخويطر وكان سفيرنا في ليبيا في ذلك الوقت هو الأستاذ عبدالله الفضل رحمه الله. ومرة أخرى طلب مني أن أحرص على ضبط الأمور، وصلنا جده ومنها مباشرة إلى مكة المكرمة لزيارة الحرم المكي الشريف، دخلنا الحرم من باب الملك عبدالعزيز وأنا حريص طوال الوقت أن أسير بجانب الرئيس أو قريباً منه. ما إن

أصبح العقيد داخل الحرم إلا وطلب من رجاله أن يهتفوا للفاتح من سبتمبر. وقبل أن يفتح أحد فمه قلت له إننا في الحرم المكي الشريف يا فخامة الرئيس وما يقال هنا هو ذكر الله وقراءة آيات القرآن التي تعظم البيت الحرام. نظر إلى ولم يقل شيئاً ومن ناحيتي أنا نظرت إلى مرافقيه لأدعم ما قلت للعقيد. سارت الأمور على ما يرام ولم يحدث شيء خارجاً عن المألوف إلى أن وصلنا المدينة المنورة وذهبنا للسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وللصلاة في مسجده.

توجهنا إلى الروضة وصلى كل واحد من الموجودين ما تيسر له أن يصلي. كنت حريصاً كما ذكرت أن أكون دوماً على مقربة من الرئيس، كان بيني وبينه سفيره في المملكة. بعد الصلاة التفت إلى سفيره وطلب منه أن يدخلوا آلات التصوير معه حينما يدخل إلى الحجرة النبوية الشريفة حيث يرقد عليه الصلاة والسلام في قبره الشريف يحف به صاحباه أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما. دخول كبار ضيوف المملكة إلى الحجرة النبوية الشريفة لا يتم إلا بأمر من المقام السامي وكان الأمر قد أعطي للعقيد لدخول الحجرة. إلا أن الأمر لم يشمل و لا يمكن أن يشمل دخول كميرات التصوير إلى الحجرة الشريفة. لا بأس أن يصور الناس وهم في الحرمين الشريفين لكن دخول كميرات التصوير إلى الحجرة

النبوية يبعث لدى كل مسلم حق قشعريرة وغيرة على دينه ونبيه. وعندما أمرني ولي العهد أن أرافق القذافي لم يمل علي تفاصيل ما يجب علي أن أفعله بل فقط للتأكد من سير الأمور في الطريق الصحيح. وكما ذكرت لا يحتاج المرء أن يكون فقيهاً في الدين ليدرك أن الهتاف لغير الله في الحرم المكي الشريف وأمر إدخال آلات تصوير إلى الحجرة النبوية أمور لا تقبل بها فطرة المسلم السوي.

لهذا عندما أمر القذافي سفيره أن يدخل آلات التصوير إلى الحجرة لتصويره هناك انبريت له مرة ثانية وقلت له مباشرة أنه لا يصح أن ندخل آلات تصوير إلى ضريح المصطفى صلى الله عليه وسلم. رد علي القذافي قائلاً: ولكن رجال الدين سمحوا بذلك وأشار إلى رجل يقف أمامنا أظنه كان أحد أعضاء هئية الإشراف على الحرم. أجبته بأنه لا أحد يملك هذه الصلاحية إلا الملك وهو لم يصدر لنا أمراً بإدخال آلات التصوير إلى داخل الحجرة النبوية. صمت الرئيس ولم يقل شيئاً. ولأتأكد من عدم إدخال أي آلات تصوير إلى داخل الحجرة ناديت رئيس مجموعة الحراسة المكلفة بالرئيس من الحرس الملكي وأخبرته بما جرى بيني وبين الرئيس ونبهته أن يكون شديد الحرص وأن يمنع إدخال أي آلة تصوير إلى الحجرة. إلا أن الشك بقي يخالجني مخافة أن تفلت آلة

تصوير بيد أحد الداخلين ولهذا فقد وقفت بنفسي أيضاً على باب الحجرة أساعد رجال الحرس الملكي ولا أظنهم كانوا بحاجة إلى مساعدتي فهم شباب أكفاء يؤدون واجباتهم بكفاءة ومقدرة.

العمل مع الملوك والرؤساء شيء عظيم المسئولية والأهمية فأنت يجب أن تكون دائماً وأبداً على أتم الاستعداد وأن تؤدي كل عمل بمنتهى الدقة والكفاءة. يعني ليس هناك مجال للخطأ أو التقصير ويجب أيضاً أن تكون سريع البديهة - أنا للأسف لا أتمتع بهذه الصفة المهمة بالشكل الذي يرضيني . يجب أن يكون جوابك حاضراً لأي سؤال، وإذا لم يكن هو الجواب الصحيح يجب أن تجلعه يبدو وكأنه الجواب المطلوب. إضافة إلى ذلك عليك أن تحسن التصرف بسرعة وكفاءة تبعاً للظروف التي تفرض نفسها عليك، ولأعطي مثلاً على ذلك. عندما يكون لدينا مؤتمر لقمة مثل قمة الخليج وغيرها من القمم تكون هناك اجتماعات عديدة مع جهات كثيرة لوضع خطة عمل كاملة تبدأ من الاستقبال في المطار إلى مغادرة آخر رئيس دولة. ذات مؤتمر عقد في الرياض أعددنا برنامج الاستقبال في مطار الملك خالد الدولي وأجرينا شبه بروفات وحسبنا قدر الإمكان الوقت الذي يستغرقه كل استقبال إلخ. وكنا سعداء في اعتقادنا أن كل شيء سيكون على ما يرام إن شاء الله. وفي يوم

وصول القادة جاء إلى المطار الملك فهد ليكون في استقبالهم. ترجل الملك من سيارته في الصالة الملكية ونظر حوله ثم سأل أين سيكون الاستقبال. أجابه رئيس المراسم سيكون هنا في الصالة الرئيسية. نظر الملك حوله ثم سأل أليس هناك صالة أخرى في الدور الأرضي قريبة من ساحة المطار حيث تقف الطائرات. أجبنا نعم توجد صالة لكنها صغيرة. ولم ينتظر لنكمل لماذا جعلنا الاستقبال في الصالة الرئيسية كما هو مفترض على أي حال. بل رجع إلى سيارته وقال للسائق إذهب بنا إلى الصالة الأسفل. وركضنا جميعاً وراء سيارته إلى الصالة الموجودة قرب الساحة على مستوى الأرض. دخل الملك الصالة وانفرجت أساريره والتفت إلينا مبتسماً قائلاً: «هذا صالون ممتاز وقريب من الساحة وأسهل من الصالة العلوية». طبعاً أجبنا بالسمع والطاعة ولكن لم يكن قد بقي على وصول أول ضيف إلا دقائق وكان علينا أن نغير كل شيء في هذه الدقائق القليلة وقد كان.

جاءني تليفون ذات يوم ونحن في جده أن الرئيس المصري حسني مبارك يود زيارة المملكة لبضع ساعات ليقابل الملك فهد في المطار ويعود إلى القاهرة. عرضت الأمر على الملك ورحب به وحدد اليوم. رجعت إلى الملك لأرى ماذا سيوجه به في الاستقبال. وسألته أن كان يأمر أن نعد غداء في المطار بحالة

ما إذا طالت فترة المحادثات. فكر الملك قليلاً ثم قال لا داعي للغداء فهو سيكون عندنا لساعة أو ساعتين ولا أظننا نحتاج غداء. قلت أمركم. إلا إنني فكرت في الأمر: ماذا لو طالت فترة المحادثات وأراد الملك أن يطعم ضيوفه. ثم ماذا يضيرني لو هيأت سفرة المطار خاصة وهي تتسع لحوالي عشرين شخصاً فقط. واستقر رأيي أن أعد طعاماً وإن لم يطلبه الملك فلن يذهب سدى إذ سوف يجد من يأكله. وهكذا كان. استغرقت المحادثات وقتاً ليس قصيراً وعندما طلبني الملك أشرت وأنا في طريقي إليه إلى زملائي والآخرين إشارة فهموا منها أن الاتجاه سوف يكون إلى الساحة حيث طريق المغادرة. إلا أنني عندما دخلت على الملك وضيفه بادرني بالسؤال إن كان الغذاء جاهزاً! وأجبت بالإيجاب. ودعا الملك ضيفه إلى مائدة الغداء وأنقذني الله من ورطة لا أدري كيف كنت سأتخلص منها.

وعلى كل حال أقر هنا - والملك فهد الأن في ذمة الله وأدعو الله تعالى له بالرحمة الواسعة والغفران - أن الغلط مع الملك فهد وأن كان يقابل باللوم والتقريع إلا أن زعله رحمه الله لا يدوم أبداً - فهو إن لامك أو انتقد عملك وأوضح لك خطأ إلا أنه في اليوم التالي ما إن يراك حتى يبتسم وربما يضع يده بحنان فوق كتفك ويؤكد لك إنك في منزلة ابنه أو أن كنت في مثل سنه آخاه. هذا ديدنه وقد رأيت منه رحمه الله مثل هذا

السلوك أكثر من مرة. ولا آتي بجديد عندما أقول إن كل من يعمل من الطبيعي أن يخطئ وهذا من صفات البشر.

لا يعرف الشوق إلا من يكابده؛ يشكو الشاعر هنا من معاناة الشوق، ويالها من معاناه لذيذة خاصة إذا كان الشوق موجها إلى حبيبة معينة تعرف عن هذا الشوق وربما تحمل لحبيبها مثله. عندها تكون المكابدة محتمله بل ولذيذة.

لكن عندما تكون هناك مكابدة بدون حبيبة وتكون أيضاً بعيدة كل البعد عن الحب وعالمه، عندها تكون المكابدة عذاباً شاقاً تؤدى كجزء من الوظيفة. قد لا يخطر على بال أحد هو أننا في مواقعنا مجندون أربع وعشرين ساعة، كل حسب مركزه. مطلوب من رجل المراسم أن يكون مستعداً للعمل في أي ساعة من ساعات الليل أو النهار، وطالما كنا نقضي الليل سهرانين متيقظين خاصة عندما نستقبل واحداً من أولئك القادة الذين اتخذوا لأنفسهم منهاجاً هو أن يطيلوا فترة المحادثات لمدة قد تصل إلى بضع ساعات لأنهم يظنون أن إطالة المحادثات تجعلهم يحصلون على ما يريدون لمجرد أن الجانب الآخر سوف يستسلم في النهاية بسبب الإرهاق ويمنحهم ما يريدون.

وقد استقبلنا كثيراً من هؤلاء وكنا طبعاً نتهيأ لهم عندما يزورونا ونستعد لقضاء معظم ساعات الليل خارج غرف

المحادثات لا نجد وسيلة لطرد النعاس إلا بكميات القهوة والشاي التي نستهلكها.

كان الرئيس الراحل سياد بري رئيس الصومال الأسبق من هذا النوع من الزوار. وكان يكثر من زيارة المملكة. زارنا ذات مرة وعقدت جلسة المحادثات بينه وبين الملك فهد. ابتدأت جلسة المحادثات حوالي الساعة التاسعة مساءً، وجلسنا كالعادة ننتظر خارج المكتب، وبعد حوالي الساعة الواحدة صباحاً خرج الملك فهد وأسرعنا بالإلتفاف حوله متنفسين الصعداء وقال واحد من الموجودين طالت المحادثات يا طويل العمر، وكان جواب الملك: «وهل تظنون أننا خلصنا. إننا لا نزال في الألف الأولى».

كانت أول مرة أسمع هذا التعبير من الملك. وفعلاً رجع إلى غرفة الاجتماعات ثانية ولم ينته الاجتماع إلا في ساعات الصباح الأولى. لكن مهما كان العمل شاقاً ونحن في المملكة فإنه يكون أكثر صعوبة ومشقة عندما نسافر في رحلات إلى الخارج. طالما سافرت إلى بلدان لم أر منها إلا المطار ودار الضيافة، وطالما قضينا ليلة السفر دون أن يغمض لنا جفن أو حتى نأخذ قسطاً من الراحة، لأن كل فرد من أعضاء الوفد يكون لديه ما يقوم به من أعداد البيان المشترك، وترجمته واجتماعات جانبية لأعضاء الوفد الرسميين وغيرها من الواجبات التي يجب أن تؤدى قبل السفر.

لقد سافرت كمترجم في جميع رحلات الملك فيصل رحمه الله عندما كان يجوب العالم داعياً إلى التضامن الإسلامي. وتلك الرحلات الكثيرة لم تكن تختلف كثيراً عما ذكرته من حيث العمل المتواصل والسهر الذي يستمر أحياناً - كما ذكرت - إلى الصباح. لكن لحسن الحظ كان هناك بعض حالات يترك المضيف فيها يوماً كاملاً للراحة. لكم كنا نسعد بيوم مثل هذا. عندما يكون هناك عمل شاق متواصل تصبح أي ساعة راحة شيئاً ذا قيمة. ولا زلت أقدر للإخوان اللبنانيين والإخوان المصريين عندما خصص كل منهم يوماً كاملاً للراحة خالياً من أي أعمال رسمية بل ترك الأمر للملك فيصل ليختار كيف يقضيه؛ ونحن في مثل تلكم الحالات أيضاً نصبح أحراراً نقضي ذلك اليوم كما نشاء وتصبح المتعة كبيرة إذ لا واجبات رسمية ولا تقيد بأوقات محددة.

من الرحلات الصعبة التي كنت فيها ضمن الوفد الرسمي كانت رحلة أوغندا. إذ قرر الملك فيصل أن يزور ثلاثة دول إفريقية هي تشاد ومالي ويوغندا ودولة عربية إفريقية هي موريتانيا. كانت المحطة الأول هي يوغندا وكان عبدي أمين هو الحاكم. كانت رحلة تميزت ببرنامجها المزدحم الذي عمل دونما أي اعتبار لراحة الضيف. الطريق من المطار إلى العاصمة كان يزيد على الستين كيلو متر وطوال هذه الفترة أو معظم الوقت

كان عبدي أمين يطلب من الملك أن يقف في السيارة ليحيي الناس حتى ولو يكن هناك إلا امرأة أو اثنين تسيران في الطريق وتحملان على رأسيهما قفة حشيش أو خضار. وكلما أراد الرئيس أن يقول شيئاً للملك يبدأ أولا في نغزي بأصابعه الطويلة القوية حيث كنت أجلس في المقعد الأمامي من السيارة بجانب السائق. ثم أن الرئيس أمين لم يفكر أن الملك قد وصل للتو من بلده بعد رحلة طويلة فهو قد أمر السائق أن يتجه مباشرة إلى نادي خاص بالسيدات المسلمات.

فوجئنا في ذلك النادي باستقبال النساء العضوات في النادي وهن يرقصن ويضربن على الدفوف وفي نفس الوقت ينشدن أناشيد من قصار سور القرآن. كان المنظر مثيراً للعجب والضحك في نفس الوقت، إذ أن من المعروف أن أي جماعة تتحول عن معتقدائها الموروثة إلى دين جديد تحمل معها بعض هذه المعتقدات ولا تتخلص منها إلا بالتدريج ودورس مكثفة في الدين الجديد. وهذا ما حصل حيث أمر الملك فيصل أن يرسل لأغوندا دعاة مؤهلون يعلمون الدين الإسلامي على حقيقته.

كان البرنامج في أوغندا مكثفاً يشغل كل ساعات النهار وجزءاً من الليل. وليتأكد الرئيس أمين من تنفيذ برنامجه بدقة انتقل إلى السكن مع الوفد السعودي في الفندق الذي نزلنا

فيه. كان يرافق الملك في كل تحركاته وكان لا يتردد إذا ما رأى صدفة في طريقه شيئاً يثير اهتمامه أن يأمر الموكب بتغيير طريقة والتوقف عند ما ظن أنه يستحق المشاهدة. لكن الرجل وهو الآن في ذمة الله يرحمه الله كان شديد الفخر بزيارة الملك فيصل وشديد الإخلاص أيضاً في علاقته الوطيدة التي أنشأها في حياته مع المملكة.

زارنا ذات مرة - وكان يكثر من زيارة المملكة - وذهب إلى مكة المكرمة للعمرة ومعه مترجم من المراسم كان حديث العهد في العمل عندنا، ولأن الزيارة كانت مما يسمى زيارة عمل ولا تتمتع بكل مراسم الزيارات الرسمية بمعني أنه لا يكون أحياناً مع الضيف وزير مرافق فقد رافق المترجم المذكور الرئيس عيدي أمين بالسيارة الرسمية. ولا أحد يعرف لماذا اختار ذلك المترجم الكلام والنقد اللاذع للحكومة والملك والجميع، أنصت إليه الرئيس عيدي باهتمام وهو يسأله بين فترة وأخرى إن كان يعني ما يقول عن مليكه وحكومته وبلده والتاني يجيب بالإيجاب. وعاد الرئيس وكان البرنامج أن يصل مباشرة من مكة إلى المطار في جده وكان ما زال المطار القديم... استقبله الملك فيصل في الصالة الملكية في المطار وكنت أترجم بينهما. وبعد هنية سألني الرئيس عيدي إن كنت أنا الذي رافقته في مكة وأجبت بالنفي، واستفسر الملك عما قاله لي الرئيس

وأخبرته. ثم طلب عيدي أن أتركه مع الملك على أن يأتي رئيس قضاته، وكان يرفاقه في كل زياراته للمملكة للترجمة له. وترجمت ذلك للملك الذي أمرني بالانصراف وأن يأتي رئيس قضاته لإكمال المقابلة، وهناك أخبر الرئيس عيدي الملك فيصل بما قاله له المترجم الذي كان قد عينه في المراسم منذ وقت قصير فقط. وكانت النتيجة أن ذلك المترجم تحفظ عليه لفترة ثم سرح من الخدمة.

obeikandl.com

الحرب العالمية/ القريتين

فقدت والدتي أم صالح ثروتها ولم يبق للعائلة شيء من متاع الدنيا الذي لم يكن شيئاً كثيراً أصلاً. كانت الوالدة تحث صالح أن يخرج من المنزل لعل الله يرزقه شيئاً عن طريق طوابير السيارات العسكرية التي كانت تقل جنود الحلفاء من الإنجليز والفرنسيين والتي كانت تعبر القريتين بطريقها إلى الشمال نحو تدمر ودير الزور في سوريا نفسها. كانت أرتال السيارات تعبر شوارع القرية الضيقة طوال النهار. وكانت الفرق التي تعبر تعسكر أحياناً في أطراف البلد. لقد ملأ الجنود وآلياتهم العسكرية البر المحيط بالبلدة وكان الناس يقصدون مخيمات الجنود بعضهم للفرجة والبعض يعرضون عليهم منتجاتهم الزراعية من فاكهة وخضرة وبيض يقايضونهم بها ويحصلون مقابلها على نقود أو في أغلب الأحيان معلبات لحم محفوظ وغيره من المأكولات المعلبة التي لم يكن يعرفها الناس في ذلك الزمان. ذهبت مرة مع أخي صالح إلى المعسكر ولم يكن لدينا شيء نبيعه أو نقايضة واحتار صالح ماذا يفعل. وبينما نحن نلف وندور في المعسكر شاهد صالح عجلتين كبيرتين. أشار صالح للعجلتين وهو ينظر إلى أحد الجنود، فما كان من الجندي إلا أن أشار بيده أن خذها. ولكن صالح وقف

مبهوتاً إذ كيف يستطيع أن يحمل عجلتين ضخمتين وماذا سيفعل بهما.

الحرب لها أوجه عديدة وكلها حزينة والجندي الشاب الذي يخوضها تتساوى عنده الأشياء ولا تعد لها قيمة أصلاً. فذلك الجندي الذي أشار لصالح أن يأخذ الكفرين لم يأبه بما سيخسر بذهابهما. وقد كانت تجري حوادث كثيرة تدل كلها على عدم اللامبالاة بالأشياء المادية، منها مثلاً أن السيارات وهي تمر بطيئه في شوارع البلدة كان بعض الشباب يتبعونها ويطلبون أي شيء يرونه مع الجندي أو داخل الشاحنات ويأخذون ما تصل إليه أيديهم. وكمثل على لا مبالاة الجنود الشباب في زمن الحرب، وربما أيضاً دليلاً ساطعاً على برود الإنجليز الذين اشتهروا به فقد ركض صبي خلف إحدى السيارات وطلب من الجنود الموجودين داخل حوض الحافلة أن يعطوه شيئاً، فلم يعده أحد اهتماماً فما كان منه إلا فك رباط حذاء أحد الجنود الذي كان يدلي رجليه خارج السيارة!.

معروف عند الإنسان الغربي عموماً أنه يحافظ ويدافع عن ممتلكاته ولكن عندما يتوقع الإنسان الموت في أي لحظة تتغير المفاهيم.

أما نحن الصبيه فقد كان كل ما يجري يبهرنا وكأننا في عالم خيالي. كنا نشاهد الطائرات الحربيه وهي تشق السماء

محلقة على ارتفاعات منخفضة حتى تكاد تلامس أسطح المنازل؛ وكنا نؤكد لبعضنا البعض أننا نرى طياريها والدليل أن الطيار يلبس طربوشاً أحمراً! وأكثر ما كان يبهرنا من الجنود في معسكراتهم عندما كنا نرى أنهم يشعلون النار في الرمل. كنا نرى التراب مشتعلاً ونؤكد لبعضنا أن هؤلاء الناس شياطين مرده إذ كيف يجعلون التراب يشتعل! ولم يدر بخلدنا أنهم يصبون الكاز في حفرة يحفرونها في الأرض ثم يشعلون النار!

الأجازات

أنا اشتكي أحياناً من أن حظي في الأجازات ليس دائماً رحيماً معي. كنت مثل غيري من الموظفين استمتع بأجازة سنوية وخاصة في الفترات اللاحقة لعهد الملك فيصل رحمه الله. أما في أثناء حكم الملك فيصل فلا أذكر أنني أخذت أجازة قط، كان آنذاك يدعو إلى التضامن الإسلامي مقابل الدعوة إلى الوحدة العربية التي كان يروج لها جمال عبدالناصر والتي لم تأت بالنتائج المرجوه سواء بمجهود عبدالناصر أو غيره من الزعماء العرب. كما نستعيض نحن المرافين من المراسم الملكية عن أجازاتنا بالوقت الذي نقضيه مع الملك فيصل أثناء أجازته السنوية في جنيف لم تكن أجازه بالمعنى الصحيح لكنها فترة راحة إلى حد كبير إذ كنا نقطن في فندق الأنتركونتنتال لمدة

شهر على الأقل على حساب الملك رحمه الله وجنيف لمن لا يعرفها ليست المكان الأمثل لقضاء أجازة إلا إذا كان الإنسان مثل الملك فيصل يدخل الفندق في أول الأجازه ولا يغادره إلا في نهايتها إلى المطار.

أخذت أجازة ذات فترة قريبة وسافرت مع زوجتي إلى جنوب أفريقيا. وصلنا إلى كيب تاون وما مرت إلا بضعة أيام وجاءني تليفون يطلب مني العودة لأن رئيس المراسم أصيب بمرض ولم يعد قادراً على القيام بالعمل. كانت المكالمة الهاتفية التي تلقيتها شديدة وعنيفة وكأنني أنا الذي تسببت في مرض رئيس المراسم وكأنني لم أستأذن وآخذ أجازة قانونية صحيحه مائة في المائه. المشكلة أنه قبل المحادثة الهاتفية الغاضبة حدث لزوجتي حادث جعلها لا تقوى على السير على قدميها بتاتاً، كنا في صباح ذات يوم صعدنا بالتلي فريك إلى جبل يسمونه جبل المائدة لأن سطحه من أعلى سطح مستو إذا نظرت إليه من بعيد يبدو وكأنه سطح مائدة، سرنا في الجبل وتمتعنا بالمناظر الخلابة التي يشرف عليها - ثم نزلنا كما صعدنا بذلك المصعد المعلق. كنا في ذلك اليوم مدعويين إلى الغداء عند رجل هندي مسلم كان هو صاحب الشركة التي نسقنا رحلتنا معها. بعد الغداء أخذتنا سيارة إلى مركز للتسوق قريب من بيت الرجل. وما أن هبطنا من السيارة إلا وأعلنت زوجتي فجاة أنها لن

تستطيع السير على قدميها. هكذا فجأه لم تعد أم نزار تستطيع تحريك رجليها. عدت بها إلى الفندق وجاءنا طبيب الفندق وزرنا مركزاً صحياً صباح اليوم التالي ولم يسطتع أحد أن يشخص طبيعة أصابتها المفاجئة. سلمنا أمرنا لله، ولكن لأنه ليس من طبيعة زوجتي أن تستسلم لحادث طارئ مثل هذا فقد أعلنت لي أن برنامجنا سوف يستمر كما هو وكل الجديد في المسألة أنني أحضرت لها كرسيا متحركاً أضعها فيه وأسير بها كما لو أنها تسير على قدميها وجدنا في الفندق كرسياً متحركاً وأصبحت أدور بها على المحلات التجارية هنا وهناك وهي تصدر لي الأوامر بأن أتحرك في هذا الاتجاه أو ذاك. في البداية كنت أستطيع على الأقل أن أستريح في إحدى المقاهي المنتشرة في المراكز الشرائية بينما هي تتجول في المتاجر كما تشاء أما الأن قد أصبح وجودي معها ضرورياً. واكتشفت أيضاً أن زوجتي رضيت بل ربما سعدت بهذا الترتيب الطارئ وصارت تعطي لي الأوامر الصارمة: تقدم إلى هنا، اتجه يميناً، ارجع قليلاً إلى الوراء وهكذا. لم يزعجني شيء من ذلك وما أزعجني هو المكالمة الهاتفية السالفة الذكر. كان عليّ أن أعود حالا. ألغيت كل ترتيبات الرحلة التي كنت أعددتها، وتمنيت على من هاتفني أن يفكر مثلاً في إرسال طائرة خاصة تقلني مباشرة إلى المملكة لكن محدثي لم يترك لي حتى فرصة

لأكمل كلامي!. لم تكن هناك طائرة تقلني إلى الرياض ولا حتى إلى جده بل ركبت أو طائرة وجدتها إلى دبي ومنا في اليوم التالي إلى جده ومن جده عدت إلى الرياض! كانت الرحلة صعبة جداً ومرهقة خاصة إذا عرفت أن زوجتي لم يكن باستطاعتها أن تسير على قدميها فكنا نصعد الطائرات بواسطة رافعات تقلنا مرة من أرض المطار وأخرى من فوق إحدى مباني المطار وهكذا. وأثناء العودة الصعبة والإرهاق الذي قاسينا منه كنت أردد بيتاً شعرياً لا أعرف صاحبه وأظنه أحد شعراء العصر الجاهلي هو:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد

ذا عفة فلعلة لا يظلم!

أحياناً أفكر أن الحوادث الطارئه تنتظرني حتى أبدأ أجازتي ثم تحدث وتفسد علي الأجازة. كنت مثلاً أنتهز فرصة نهاية الأسبوع لأقضيه في مكان ما خارج الرياض أو خارج المملكة. ولكن في أغلب نهايات الأسبوع هذه التي كنت أتسلل فيها بعيداً عن جو العمل، وأعترف هنا أنني لم أكن دائماً أستأذن للسفر لأنه نظرياً يحق للموظف أن يتمتع بأجازة نهاية الأسبوع. وغالباً ما كان يحدث أنني ما أن أصل وجهتي حتى يحدث طارئ مفاجئ وأضطر للعودة في اليوم التالي!.

فكرت ذات صيف بعد أن حصلت على أجازة رسمية أن أقضيها في رحلة بحرية من التي تعدها شركات بواخر كبيرة تمخر خلالها البحار وتقف في الموانى المختلفة. سافرت مع زوجتي بعد أن حجزت كابينتين على إحدى هذه السفن العملاقة.

كانت الرحلة تبدأ من اسطنبول في تركيا ثم تقف في موانى في اليونان وأيطاليا وفرنسا وتنتهي في إسبانيا. ودعوني أحكي عما حدث في هده الرحلة. كنا أربعة أشخاص أنا وزوجتي وصديقي أحمد حستنية وزوجته. سكنا في أحد فنادق اسطنبول وذات يوم فكرنا أن نذهب بنزهة إلى إحدى ضواحي المدينة المشهورة بجمال طبيعتها وهوائها العليل. ركبنا سيارة وبينما نحن نعبر أحد شوارع المدينة إذ بانفجار رهيب جعل سيارتنا تقفز من فوق الطريق. قيل فيما بعد أن انفجاراً حصل في مركز للشرطة عندما كنا نمر أمام المبني. وصلنا جهتنا المقصودة واسترحنا قليلاً في مكان عالي يشرف على واد سحيق ومناظر طبيعية خلابة تنتهي أسفل الجبل بالبحر، عند العودة وكنا قد استأجرنا عربتين فيتون من التي تجرها الخيول. في القدوم كان الأخ أحمد وزوجته في عربة وكنت مع زوجتي في العربة الثانية. عند العودة اقترحت السيدتان أن تكونا في إحدى العربتين ونحن نأخذ العربة الثانية. لم نكن

نعرف أن عربتنا كان سائقها قد تركها لأمر ما وأوكل للعودة بها صبياً لم يكن ذي دراية بالتعامل مع الخيول. كانت عربة الزوجتين أمامنا ونحن خلفها. وما إن سرنا قليلاً في طريق العودة والطريق من أحد جانبيه شديد الإنحدار وينتهي انحداره إلى البحر مباشرة كما ذكرت. كانت المنطقة كلها منطقة غابات والجو غائم والمطر ينهمر بغزارة. وما إن أخذ الصبي مكانه في مقعد القيادة حتى جفل الحصانان وانطلقا كالريح وكأن مساً من الجن أصابهما. ما إن رأى الصبي ما حدث حتى قفز من العربة وأطلق ساقيه للريح. طار الحصانان يجريان دون ضابط وأخذنا أنا وأحمد نصيح هو يقول اقفز يا منصور وأنا أزعق اقفز يا أحمد ولم يجرؤ أحد منا على القفز. اتجه الحصانان نحو الانحدار الذي ينتهي في البحر. لكن إرادة الله شاءت أن عموداً كهربائياً ضخماً بجانب الطريق جاء بين الحصانين الهائجين مما جعلهما يسقطان أرضاً من شدة الصدام. كان الصدام من القوة بحيث جعل العمود بكل صلابته ينحني عندها فقط استطعنا أنا وأحمد ترك العربة المحطمة والحصانين اللذين سقطا على الأرض. وانقذنا الله من موت محقق.

أما الثالثة فقد كانت ثالثة الأتافي كما يقول التعبير المشهور. فقبل يوم واحد من ابحارنا في رحلتنا البحرية حصل هجوم القاعدة المشهور بـ ٩ / ١١ على مركز التجارة العالمي في

نيويورك. لم تلغ الرحلة بالكامل ولكن بدل الوقوف في الموانى المختلفة في الدول التي ذكرتها أبحرت السفينة مباشرة إلى برشلونه في إسبانيا. أعجبني في إدارة الشركة أنهم قالوا للسياح أن الرحلة هذه كلها بهذا الشكل تعتبر ضيافة من الشركة لضيوفهم وأن جميع مسافري الرحلة يحق لهم أن يتمتعوا برحلة أخرى مماثلة دون مقابل. وأعود الأن إلى ما بدأت به من صعوبة الحصول دائماً على أجازة. مضت سنة تلو السنة ولم أستطيع بسبب ظروف العمل أن استفيد من تلك الرحلة المجانية الممتازة!.

*****

اكتب هذه المذكرات وقضية الرسومات الكاريكاتورية التي رسمها إنسان غربي جاهل حاقد على الإسلام وعلى نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم والتي أظهره فيها وقد وضع فيه كل العيوب والرذائل التي يسبح فيها المجتمع الغربي ذاته. رسمها بحجة حرية الصحافة والتعبير، ولا أدرى كيف سمح لذلك السفيه مجتمعه الذي يدعى المدنية والرقي، إهانة رمز الإسلام وخير خلق الله أجمعين والذي هو أحب إلى كل مسلم من أمه وأبيه ونفسه والناس أجمعين. إن هذا المتحدي الوقح لم يكن ليجرؤ على ما فعل لولا ما هان المسلمون والعرب على

الناس. رحم الله أيام العز والمجد عندما كانت امرأة واحدة تستنجد بخليفة المسلمين فيجند لها جيشاً لنجدتها وتأديب المعتدين. أحب أن أؤكد هنا لمن قد يقرأ هذه المذكرات أن نفس الإنسان الغربي لا يمكن ولن تتقبل إنسان الشرق الذي يدين بالإسلام. وتاريخنا مع الغرب لا يزال حياً قائماً نذكره ونذكر حروبهم ضدنا واحتلال بلداننا قديماً وحديثاً، ونتذكر تآمرهم علينا وتلاعبهم بأقدارنا وكذبهم وخداعهم. ولم تستقل بعض بلداننا العربية إلا منذ عهد قريب فهم المعتدون دائماً وهم الذين سرقوا ثرواتنا وقسموا بلداننا وهم الذين أثاروا النعرات الطائفية في بلداننا، ومن كان يعتقد أن نفوس الغربيين يمكن أن تهادننا وأنهم سيتوقفون عن نسج المكائد ضدنا فهو واهم واهم. وأين هي الحرية التي يتشدقون بها وها هو رئيس أمريكا يحتل بلداً عربياً ويهدد ويثير النزاعات ضد الدول العربية الأخرى. إن الإنسان الغربي هو في الغالب الأعم إنسان مخادع منافق كذاب لا يمكن الوثوق به ولا لحظة واحدة. وأين هي الحرية التي يتشدقون بها ويتهموننا نحن العرب بأننا نستعبد الناس. هل شاهد أحد منكم الأفلام التي يعملها الأمريكيون أنفسهم عن تجارة الرقيق التي مارسوها لعشرات السنين ضد الشعوب الإفريقية السوداء؟ كانت سفنهم تذهب إلى هناك وكانوا يجمعون الأفارقة رجالاً ونساءً وأطفالاً ويختارون الأقوياء

الذين يتحملون رحلات العذاب في السفن المتجهة إلى الغرب. كانت رحلات العذاب أقسى مما قد يتصور أي إنسان. ولا أدري كيف استحملت قلوب أولئك العلوج - حقاً أنهم علوج - مشاهدة أولئك الأفارقة المساكين المسلسلين إلى بعضهم البعض ورميهم في قاع السفينة دون ماء أو زاد طيلة الرحلة ومن يموت من أولئك المعذبين يبقى مسلسلاً إلى الأحياء حتى تصل السفينة ويؤخذ الأحياء منهم إلى سوق النخاسة مباشرة ويباعون بأرخص من أسعار الماشية لأن العرض كان أكثر من الطلب والسفن غادية رائحة إلى أفريقيا تحضر المزيد من العبيد.

كان كبار السن من المزارعين الأمريكين الذين يملكون العبيد يتسخدمون الأطفال منهم أيام البرد والصقيع فيجعلون الأطفال الصغار يستلقون أرضاً على بطونهم تحت أقدام السادة البيض ليدفئوها لهم!!.

ومتى تحرر العبيد في أمريكا - إن كانوا تحرروا فعلاً؟ منذ أيام قليلة فقط ماتت المرأة السوداء التي تحدت العنصرية الأمريكية الرعناء والتي كانت تفصل بين البيض والسود في كل مجالات الحياة، حيث في أوتوبيسات النقل العام مثلاً يركب السود في مؤخرة الأوتوبيس وعليهم - حتى النساء - أن يتركوا

أماكنهم إذا جاء أبيض ولم يجد له مكاناً !! ويتكلم السيد بوش عن الديموقراطية التي جاء يقيمها في العراق! لا أود هنا أن يأخذني الحماس وأعمم ما أقوله على كل الغربيين ولكن مرة أخرى أن نفسية الرجل الأبيض بصفة عامة لا يمكن أن تعقد صلحاً صار صادقاً مع غير البيض، فمنهم يعتبرون أنهم أرقى من كل الأجناس الأخرى عرقاً والأمثلة على ذلك كثيرة ولا أظن ألا إن حقدهم علينا سيبقى حياً ما دامت السماوات والأرض، وإلا ما نوع الشيطان الذي استولى على عقل ذلك المحرر في الجريدة الدانماركية وجعله ينشر رسومات سيئة إلى نبي المسلمين عليه الصلاة والسلام والتي طعنت المؤمنين في أقدس رمز عندهم؟!.. لماذا لم يرسم ذلك المعتوه أحداً من أنبياء اليهود مثلاً ولو أننا كمسلمين نجل ونقدس ونصلى على كل الأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم أو أخبرنا رسولنا صلى الله عليه وسلم عنهم.. أقول لماذا لم يرسم ويستهزي بأحد من مؤسسي دولة إسرائيل، أو لماذا لم يسخر من ادعاءات اليهود الكاذبة عن محرقة هتلر أو يسخر مثلاً من ادعاء اليهود من أن الله أعطاهم أرض فلسطين أرض الميعاد كما يدعون؟ لأنه لو اقترف «جرماً» كهذا فإنه سيطرد من الجريدة في اليوم التالي. لكن هذا الأهوج أمن العقاب من ناحيتنا فقل أدبه.

ولا يحتاج الأمر في الحقيقة أن نؤكد أن اليهود الآن وخاصة في أمريكا وأوروبا يرعبون الناس ويستطيعون تحطيم

أي إنسان يجرؤ على قول الحقيقة عنهم. وما قضايا مثل حكاية بول فندلي الذي يبدو أن الكيل طفح معه فكتب كتابه المشهور (من يجرؤ على الكلام) وكانت النتيجة أنه فقد مقعده في الكونجرس وحصل مثل ذلك لما كلوسكي رئيس لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ الذي اقترف ذنباً لا يغفره اليهود عندما قابل ياسر عرفات وكان مصيره مثل مصير فندلي، ولم يكن مصير شارلي بيرسي المعتدل الذي كانت كل جريمته أنه نصح الإدارة الأمريكية أن تتعامل بأنصاف بما يتعلق بقضايا فلسطين والعرب عامة فكان مصيره مثل مصير صاحبيه. ولعلكم تذكرون السيد جارودي الأديب والفيلسوف الفرنسي الذي اعتنق الإسلام. لقد عانى هذا الرجل الأمرين من اضطهاد الصهاينة له لأنه شكك فقط في عدد الذين قتلهم هتلر في ألمانيا والذي يقدره اليهود بستة ملايين إنسان وهو كذب. واليهود يسيطرون فعلاً على أقدار الناس بواسطة سيطرتهم على حقول الإعلام والسينما والمؤسسات المالية. لم يتركوا لأحد شيئاً. أذكر أن الممثل الأمريكي الراحل مارلون براندو في أواخر حياته خطر له ولا أدرى لماذا أن يظهر على شاشات التلفزيون ويتهم اليهود بأنهم يسيطرون على أقدار الناس في الولايات المتحدة. وانفتحت عليه أبواب جهنم. ولم يتورع المسكين وهو رجل كبير وقد صارت مهنته كممثل وراءه،

ومع ذلك لم يتورع أن يسرع بعدها بأيام ويعلن وهو يبكى التوبة مما قاله ويستجدى السماح وأنه لن يعود لمثلها مرة أخرى. ومات وهو على توبته! كنت أتحدث عن الرسوم الكاريكاتورية التي نشرتها جريدة دنماركيه. لقد هان المسلمين على أنفسهم فهانوا على الناس. ولا آت بجديد إذا قلت أن الدنيا دائماً تدير ظهرها للضعيف المغلوب على أمره ومن ظن غير ذلك فهو واهم. الشعوب الضعيفة مضطهدة والتاريخ مليء بالأمثلة. وخلق الإنسان ظلوما.

والتاريخ ملئ بحكايات الظلم والاعتداء. ماذا فعل المسلمون لهولاكو عندما هاجم بلاد المسلمين واستباحها وقتل آخر الخلفاء العباسيين ومعظم أهل بغداد وعاث فيها من الفساد ما لم يحدث في تاريخ الأمم قبله، فعل مثل ذلك في دمشق وباقي مدن الشام إلى أن قيض الله للمسلمين الملك الشجاع الظاهر بيبرس البندقداوي الذي أعترف أنني لا أعرف عنه سوى ما شاهدته منذ فترة قصيرة في مسلسل جميل عنه. لقد أعجبت بهذا الإنسان البطل لدرجة أنني الأن أبحث عن كتب عنه لأعرف عنه المزيد ولا أنسى نفسي كما نسيتها لفترات عشت مع المسلسل وكأنني رجعت في الزمن إلى الوقت الذي عاش فيه هذا البطل الذي لم يكن عربياً أصلاً بل مملوكاً يباع ويشترى. رحم الله الملك الظاهر الذي ذكرني بالمعتصم بن

هارون الرشيد الذي جيش جيشاً ليلبي نداء امرأه مسلمة لطمها أحد العلوج الفرنجة فصاحت صيحتها المشهورة: «وامعتصماه» لقد عمل الظاهر تقريباً نفس الشيء عندما أتته امرأة مستنجده به لإنقاذ ابنتها التي اختطفها أحد قادة الفرنجة فخلصها الظاهر بيبرس وقتل مختطفها كما يحكي المسلسل. شكراً لطاقم المسلسل والقائمين عليه، فلقد مكنوني أن أعيش الحلم كل ليلة وأستمتع أيما استمتاع بجوادته البطولية، والعجيب أن معظم أبطال المسلسل كما ذكرت كانوا مماليك بيض الله وجوههم ورحمهم رحمة واسعة.

هكذا كان تاريخنا المجيد الذي لا نعمل الآن أكثر من البكاء عليه وأنا مثل غيري أؤمن أن أي إصلاح جاد لحال العرب والمسلمين لا يمكن أن يكون فعالاً إلا إذا بدأ هذا الإصلاح من القمة، يعني من الحاكم والسبب في ذلك أن بلاد العرب والمسلمين لا يحكم معظمها بواسطة شعوبها مثل مجلس البرلمانيات ومجالس الشورى ولكن تحكم مباشرة من رأس الدولة، وهذا إن لم يكن صالحاً أو قادراً فبطبيعة الحال تسئ أحوال البلاد كما هو حاصل الأن، ولننظر فقط إلى بعض البلاد التي أتى حكامها على ظهر دبابة كما يقولون لندرك مدى تراجع أحوالها. وأنا لا أدعوا هنا إلا أن يقيض الله لبلاد المسلمين حكاماً أكفاء عادلين كي تنصلح أحوالهم ولا يهمني في

شيء مسألة الديموقراطية والانتخابات وغيرها. ولمن يعترض على هذا ولو في سره فليتذكر كيف صلح حال المسلمين عندما حكمهم قادة عادلون أكفاء والمثل الأعلى في هذا هو رسول الله ﷺ الذي كان نبياً وقائداً وسياسياً ومخططاً ويمتلك كل الصفات التي جعلته ينجز ما أنجز بأمر ربه تبارك وتعالى.

كذلك لنتذكر قادة المسلمين الأوائل ورجالهم الأفذاذ الذين أعادوا العزة والمجد لدولة الإسلام مثل خلفاء بني أمية ثم العباسيين وكذلك حكام الأندلس من الأمويين ثم قادة عظام مثل صلاح الدين والظاهر بيبرس فيما بعد.

لقد استبدلنا كل ذلك الآن بمقدرة خارقة فقط على الحكي. لقد صرنا نؤمن - أو ربما نظن أننا نؤمن وذلك لعجزنا عن العمل - أن الحكي والصياح يقوم مقام العلم والأفعال. يجتمع زعماء العرب ويصلون تباعاً إلى مقر اجتماعاتهم بطائراتهم الفخمة مع زفة من المصورين والإعلاميين الذين يصورون كل حركة ولفتة ويقربون مكروفوناتهم يلتقطون كل كلمة يتلفظ بها القادم الكبير، وعلي الجانب الآخر تجد مذيعين آخرين يهدرون بأصوات خطابية جهورية متهدجة عن المجد القادم والإنجازات التي ستهز أركان الدنيا. ثم يجتمع القادة اجتماعات علنية وسرية ويصدرون بياناً ختامياً يكون معداً سلفاً من قبل وزراء خارجايتهم قبل أن يصلوا ويرحلون

عائدين إلى بلادهم وينفض السامر وينضم البيان الختامي إلى أمثاله من البيانات الختامية السابقة وينسدل عليه ستار النسيان كما انسدل على كل البيانات الختامية السابقة.

عندما انتهيت من تأليف كتابي «ما لم تقله الوظيفة» وتم طبعه وأصبح جاهزاً للتوزيع حسب ما اعتقدت حينئذ، صادف ذلك وقت انتقال الديوان الملكي إلى المنطقة الغربية. وصلت جده وكنت دعوت قبل وصولى مجموعة من الأصدقاء وأهل القلم والأدب إلى منزلي للتشاو ولتوزيع الكتاب عليهم. إلا أنني قبل أن أصل جده قررت عدم توزيعه الكتاب، وجاء المدعوون إلى بيتي في جده وتعشوا ثم جلسوا ينتظرون توزيع الكتاب الذي كنت دعوتهم من أجله. وقفت بعد العشاء أمامهم وأعلنت أنني لن أوزع الكتاب استمعوا إليّ مذهولين وقال بعضهم أنها خدعة فقط حتى يأتوا للعشاء ولا كتاب هناك. وبدا لمعظم الآخرين أن ذلك هو التفسير الصحيح. جئت بنسخة من الكتاب وأظهرتها لهم لكن دون أن أسلمها لأي أحد، السبب: وجدت قبل توزيعه أن هناك أشياء كثيرة لم أقلها أنا أيضاً بالإضافة إلى ما لم تقله الوظيفة، وأن الكتاب سيكون ناقصاً كثيراً إذا لم يشمل على تفاصيل كثيرة من موضوعه المحدد والتي هي جزء أساسي من سيرتي.

أقول هذا الكلام بمناسبة محاولاتي الأن إعداد ما يمكن أن يعتبر الجزء الثاني من مذكراتي والتي لابد أن أركز فيها على عملي في الديوان الملكي والمراسم الملكية. وحيث أنني ألجأ إلى ذاكرتي فقط في هذا الجزء أيضاً كما في الجزء الأول يصبح من الطبيعي أن أنسى أحداثاً وقصصاً وتواريخ أو تختلط كلها عليّ وكليّ أملاً أن لا يحدث ذلك بشكل يهدم البناء الرئيس لهذا الجزء الثاني.

جذور عائلية

عندما قرأ سمو الأمير سلمان ابن عبدالعزيز أمير منطقة الرياض كتاب السيرة الجزء الأول لاحظ - والأمير سلمان قارئ ناقد ولديه قدرة هائلة على الاستيعاب وأيضاً على التذكر - أقول عندما قرأ كتابي الأول لاحظ أسماء أمي وخالي وخالتي: آمنة - فهد - طرفة وجدتي هدله واسم العائلة المحجل. قال سموه أن هذه الأسماء كلها تدل على أن عائلة الوالدة هم من البدو لأنها كلها أسماء بدوية - وقد أسعدني أن أسمع منه ذلك ولو أنني كنت أتمنى أن أعرف إلى أي قبيلة ينتمون. على كل حال القريتين تقع على أطراف بادية الشام إلى الغرب من مدينة حمص والاختلاط بين سكانها وبين البدو الرحل الذين كانوا في السابق سادة البادية وفرسانها كان طبيعياً بحكم الواقع.

وقد حصل تزواج كثير بين سكان القريتين والبدو من قبائل الرولة والغواعير وعنزة ولا زالت هناك إلى الآن زيجات قليلة تحصل بين سكان القريتين والبدو الرحل.

أتيت بالنبذة السابقة عن انتماء والدتي إلى ما قد يكون قبيلة بدوية ربما لأن البعض هنا لا يزال يتحدث عن أصول العائلات وانتماءاتها - وهذه العائلة قبيلة وهذه ليست كذلك. لا أدري من الذي أتى بهذا التقسيم ومن الذي ابتدأه وغذاه والغريب أنه لا يزال بيننا إلى الآن في هذه البلاد من يقف بصرامة وعناد أمام هذه التقسيمات ويؤمن بها أيماناً عميقاً - وبعضهم مثلاً لا يمكن أن يزوج ابنته من شاب ولو كان على خلق رفيع ومشهود له بالسيرة الحسنة وصاحب علم وجاه ومن عائلة كريمة إلا أنها ليست قبيلية! وبدلاً من ذلك قد يزوجها لرجل معدم جاهل لا يمكلك جاهاً ولا مالاً لكنه ينتمى إلى القبيلة الفلانية. إن هذا للأسف من سلوك الجاهلية؛ ثم لا أعلم من الذي صنف الناس والعائلات لقبيلي وخضيري كما يطلقون على الآخرين. فكلمة الخضيري نفسها تدل على أن أولئك «الخضريين» اختاروا أن يستقروا في مكان ما يزرعون الأرض ويغطونها بالخضرة - وهم قد انفصلوا عن قبيلتهم بمحض أرادتهم وهم الذين عمروا الأرض. وإلا فكيف يفضل عليهم أناساً ربما من قبيلتهم التي هجروها استمروا على غزو

جيرانهم والآخرين ينهبون ويقتلون ويعيثون فساداً؟ ولا أحتاج إلى أن أدلل على ما أقول فهو موجود في جميع الكتب التي كتبت عن الجزيرة العربية بأقلام المستشرقين والرحالة العرب الذين زاروا الجزيرة قبل أن يقوم مؤسس هذه المملكة صقر الجزيرة عبدالعزيز آل سعود طيب الله ثراه بتوحيد الجزيرة ونشر الأمن والأمان في ربوعها، سمعت حكاية عن رجل بدوي كان يعيش في جده وكان يعتقد مع جماعته أن الأمور ستعود إلى الفوضى وغياب القانون بموت الملك عبدالعزيز، ولهذا فما إن أعلن عن وفاته رحمه الله إلا وأخينا مع بضعة من رفاقه من القبليين أسرعوا إلى شارع قابل حيث هناك توجد دكاكين الذهب والمجوهرات. وانتظروا كي يبدأ النهب والسلب إلا أنه لم يحدث من ذلك شيئاً وعادوا من حيث أتوا موقنين هذه المرة أن مملكة عبدالعزيز قامت لتبقى. وأن التاريخ لن يعود إلى الوراء.

طبعاً أنا هنا لا أعني مطلقا أن أقول أن القبائل البدوية لم يكن لها منهجاً إلا الغزو والسلب والسرقة من بعضها البعض. هذا يجافي الحقيقة، حتى وإن كان هناك حوادث كثيرة فردية من أشخاص يمكن أن يطلق عليهم لصوص أو قطاع طرق، ومثل أولئك تجدهم في كل المجتمعات حين ترتخي يد العدالة وتتثاءب سلطة تطبيق القانون. إنما كانت هناك مُثل ومبادئ

نبيلة كان البدوي لا يتردد في التضحية بحياته في سبيل الدفاع عنها. ولن أحتاج أن أعدد هنا تلك الفضائل من إكرام الضيف وأجارة الملهوف والدفاع عن المحارم والحكم بالعدل من قبل الزعماء لرعاياهم وغيرها مما تمتلئ به كتب التراث. ونستطيع أن نضيف أيضاً أنه حتى غزو قبيلة لأخرى وسلبها كان يعتبر عندهم من ضروب الشجاعة والبروز وهي عادات توارثوها عبر أجيال طويلة ولم يكونوا يروا عيباً في أن تغزو قبيلة قبيلة منافسة تقتل رجالها وتسلب أموالها لأن الحياة في الصحراء قاسية ولا يستطيع البقاء فيها إلا القوي. تحكي الليدي آن بلنت التى قامت برحلة إلى الجزيرة العربية مع زوجها، تحكي عن حادثة جرت لها مع زوجها ومجموعة من البدو المرافقين لها وكانوا في مكان قريب من مدينة النبك في سوريا في طريقهم إلى الجنوب نحو حائل، هجم عليهم مجموعة من رجال الدولة عددهم اثني عشر رجلاً وضربوهم وأخذوا خيولهم وسلاحهم.

ولكنهم لما عرفوا أن بين المجموعة امرأة - وكانت تلبس مثل الرجل - أعادوا لهم خيولهم وأسلحتهم وتحول سلوكهم من القسوة والعداوة إلى صداقة وحسن سلوك. تقول السيدة آن بلنت: «لقد أحببنا منظر هؤلاء (الرولة) الفتيان فبالرغم من سلوكهم الخشن، استطعنا أن نرى فيهم رجالاً نبلاء. لقد

شعروا بالعار لاستعمالهم لحرابهم ضدي، وأفاضوا في تقديم الاعتذارات، لقد شهدوا شخصاً يرتدي عباءه، ولم يشكوا مطلقاً في أن لابس العباءة رجل.

أعود إلى النقطة التي أثارت موضوع البدو وسلوكياتهم والذي أرى أنها تستحق الوقوف عندها: وهي لماذا يظن أولئك أن من ترك عادة التنقل من مكان إلى مكان بحثاً عن الماء والكلأ ولجأ إلى الأرض يعمرها، يحرثها ويزرعها ويأكل من خيرها، لماذا يظن أولئك أن من فعل ذلك استحق أن يكون أقل شأناً منهم؟ ولماذا لا يزال هذا المفهوم سارياً حتى الآن ويتغلغل ليس فقط في نفوس الجهلة بل والمثقفين من الناس ومنهم حملة شهادات عليا حصلوا عليها من بلاد تسود فيها الديموقراطية ولا تعترف إلا بإنجاز الإنسان من الأعمال المفيدة؟ العقلاء الذين انسلخوا باختيارهم عن قبائلهم وفضلوا عليها الاستقرار وأحياء الأرض وبدء حركة التطور والمدنية هؤلاء أصبح يطلق عليهم بما يشبه التحقير الخضيريين - إنه الجهل والعقول المتحجرة التي كان المفروض أن تكون انقرضت مع الدايناصورات.

*****

عاش الملك خالد رحمه الله في قلوب الناس، أحب الناس فأحبوه، كان أبا للصغير وأخاً وصديقاً لأبناء شعبه، حدث ما

يسمى بالطفرة الأولى في عهده، تدفقت الخيرات على البلاد وحلت البركة. ولم تكن هناك أخطار المغامرات التي حلت بالناس في أيامنا هذه من جراء انهيار سوق الأسهم وما جلبه ذلك من تعاسة. أيام الملك خالد بدأ ارتفاع سوق الأراضي، لم يكن هناك خطر من الإتجار في الأراضي فالأرض مهما حصل تظل قائمة في مكانها لا تزول وأن يحدث ما يحدث فسعرها يتجه غالباً إلى الأعلى وليس العكس. وأكثر ما كان يسعد الملك خالد رحمه الله هو أن يرى الناس ميسورين. وكان دائم الابتسام ولذا فقد كان يحب أن يرى الناس جميعهم سعداء مبتسمين مثله. ويقرب العلاقة التي تجمعنا نحن رجال المراسم به. كان كثير التعليق على ما يلاحظ من حركاتنا وسكناتنا. وحيث أنني كما ذكرت في مكان آخر من هذا الكتاب كنت ممن يظهر على وجوههم بوضوح ما يعتمل في نفوسهم، يصبح عندما أكون قريباً من الملك أكون بطبيعة الحال في جو العمل وتكون ملامح وجهي بالتالي جادة. كان ذلك يثير انتباه الملك خالد فلا يفوته التعليق الخفيف الذي يشوبه المرح. كان خارجاً من مكتبه ذات يوم بعد إنتهاء الدوام فنظر إليّ ورأى سحنتي الجادة فقال «الخريجي هذا دايم رافعن خشته علينا» قالها بمزح ومع ذلك ماذا يكون ردك عندما يقول عنك ملك البلاد مثل هذا القول!

أسرعت وقبلت كتفه قائلاً استغفر الله يا مولاي، وهل هذا معقول؟ ابتسم رحمه الله وربت على كتفي بحنان الأب.

كانت حكمة الملك خالد في بساطته فهو يتكلم وفي كل كلمة تجد قولاً صادقاً حكيماً، يفعل هذا دون أي تكلف، كانت بساطته وعدم تكلفه وابتسامته الدائمة تشيع البهجة والراحة في نفوس من حوله. كان أيضاً شديد الصراحة، لا يتورع أن يجابه من يجادلهم بما يراه صحيحاً بغض النظر عن قواعد البروتوكول زار المملكة ذات مرة الرئيس الصومالي الراحل زياد بري عندما كانت الصومال لا تزال بلداً متماسكاً. والملك خالد يعرف أن الصومال بلد عربي لكنه عندما اكتشف أن زياد بري يتكلم الإنجليزية ويحتاج بالتالي إلى مترجم لم يتردد في سؤاله عن كيف أنه رئيس بلد عربي ولا يتكلم العربية! والسؤال منطقي مائة في المائة.

كان الملك خالد رحمه الله يمثل رجل الصحراء البدوي الذي لم تستطيع الحضارة والتمدن أن تلغيا من وجدانه حب الصحراء وحياتها البسيطة وطبيعتها الساحرة. كان يعشق الطيور وخاصة الصقر ويعشق الجمال والخيول وهي كنوز ابن الصحراء، كان يحب السفر براً وفي مرات كثيرة يسافر من الرياض إلى المنطقة الغربية والعكس بالسيارات. وعلى سنة

والده الملك عبدالعزيز طيب الله ثراه كان يعين الأمكنة التي يريد أن يتوقف فيها. كنت أحياناً أرافق الموكب الملكي بسيارتي التويوتا الصغيرة ولم أكن في ذلك الوقت أملك غيرها كما لم يكن يوجد لدي سائق، وعلى ذكر السائق أذكر أنني عندما ابتدأت العمل في الديوان الملكي مترجماً للملك فيصل لم يكن لدى في ذلك الوقت سيارة أصلاً وكنت أستعير سيارة صغيرة من ابن عمي عبدالإله الخريجي وأظنه أيضاً كان لا يملك غيرها. كانت سيارة فيات صغيرة صفراء كالتي تستخدم للأجرة. كنت كلما وصلت بوابة الديوان يوقفني جنود الحراسة فأخبرهم أنني مترجم الملك ويسمحون لى بالدخول. كانت الأحوال في ذلك الوقت سهلة وميسرة والأمن والأمان كانا سائدين. وتكرر دخولي إلى الديوان بالسيارة الصغيرة القديمة أياها - ويظهر أنه كان هناك عريف مكلف بالبوابة ومعه جنود يتبادلون الحراسة معه. وصلت ذات مرة وكان العريف موجوداً وقبل أن أنطق بقولي المكرر قال بشيء من التهكم تفضل فأنت مترجم الملك - ثم أضاف هل تعتقد أنني أصدقك أنك مترجم الملك وأنت تأتينا بهذه السيارة المكسحة؟ وكدت أنا نفسي أقتنع بأنني لا يمكن أن أكون مترجماً للملك وآتي للعمل بسيارة مثل تلك السيارة!..

كان الملك خالد ذات سنة في المنطقة الغربية وحان وقت العودة إلى الرياض، وكالعادة أمر الملك أن تكون العودة

بالسيارات. كانت المحطة الأولى «المعشى» خارج مدينة الطايف واختار الملك أن يبيت ليلته في المعشى.

وصلنا نحن الموظفون وكنت بمفردي في سيارتي. قصدت مع بعض الزملاء خيمة مخصصة لنا وقد زودت بفرش للنوم، بعد العشاء والسهرة وكان الوقت قارب منتصف الليل قرر الزملاء أن يبيتوا في المخيم بينمها أخترت أنا أن أواصل السير. حاول الإخوان ثنيي عن ذلك إلا أنني أصريت على السفر. ركبت سيارتي وما إن مضيت قليلاً إلا وتذكرت حكاية كنت سمعتها من بعض الزملاء. الحكاية حقيقية كما أكد الأخوان وهي تقول: أن ثلاثة من موظفي الإعلام ممن كانوا منتدبين للعمل في الديوان الملكي كانوا مسافرين من الرياض إلى جده، اثنين في سيارة والثالث بمفرده في سيارة ثانية؛ أرخى الليل سدوله فقرر الاثنان اللذان يستقلا سيارة واحدة أن يمضيا باقي الليل في محطة صغيرة على الطريق، بينما أصر الثالث على استئناف السير نحو جده، يقول ذلك الشخص أنه بعد أن سار مسافة غير قصيرة والليل أظلم والطريق على مرأى البصر من الأمام والخلف خاويا لا يوجد فيه بصيص نور، يقول أخينا والكلام على ذمته - أنه شعر برعشة تسرى في جسده وأراد أن يبددها فأخذ يغني بصوت مرتجف قليلاً. غنى مقطعاً من أغنية ثم سكت. وما أن سكت حتى سمع شخصاً بجانبه يغني!!.

يقسم هذا الشخص - حسب الذين سمعوا منه الحكاية - أن شخصاً بجانبه أخذ يردد الأغنية التي غناها. ثم يقسم ثانية أنه من شدة رعبه ارتفعت طاقيته فوق رأسه بعد أن وقف شعر رأسه! لم يجرؤ على النظر إلى يمينه. كان ينظر أمامه وخلفه من المرآه يتمنى على الأقل أن يشاهد نور سيارة خلفه أو قادمة نحوه إلا أن الطريق بقي خالياً تماماً والظلام الدامس يلفه. لا أذكر بعد ذلك ماذا حدث وكيف خلص أخينا من مصيبته. إنما الذي أذكره جيداً أنني ما أن تركت المخيم في الطايف واستقبلت الطريق المؤدي إلى الرياض إلا وتذكرت القصة. لم يقف شعر رأسي عند التذكر إلا أنني ندمت على ترك المخيم والزملاء. لم يعد من الممكن العودة إذ ماذا سيقول الناس عني؟ ضحكت من نفسي على سخف الحكاية كلها واستأنفت السفر. أخرجت شريطاً لأم كلثوم وبدأت استمع إلى الأغنية. أعترف أنني كنت متوتراً، أتلفت يميني في السيارة وإلى الخلف في المرآه لأرى أن طب علي زائر فجأة! كنت خائفاً وبنفس الوقت أضحك بعصبية على سخافتي. مكثت استمع إلى أم كلثوم إلى أن انتهى الشريط. بعد إنتهاء الشريط جاءني صوت أحد يصفر. يا للمصيبة!! من هذا؟ سألت هامساً! ثم وقف الشريط بعد أن انتهت الأغنية استعذت للمرة الألف من

الشيطان الرجيم وأعدت الشريط إلى الوراء قليلاً ثم أدرته وفي هذه المرة وجدت أن الشريط عندما ينتهى يظهر صوت آلة موسيقية نغمتها تشبه الصفير. وحمدت الله أنه لم يكن معي مرافق في السيارة.

*****

لا شيء جديد طبعاً في مقولة أن الدنيا عندما تقبل على الناس يكثر أصدقاؤهم ومحبيهم. وقد تكلم الحكماء وغير الحكماء حول هذا الموضوع. لكن تبقى هناك مرارة يتجرعها صاحب المنصب والجاه عندما يفقد المنصب والجاه، سئل الإمام علي كرم الله وجهه عن عدد أصدقائه فأجاب ما معناه أنهم كثر الأن والدنيا مقبلة عليه وعليهم أن يسألوه عندما تدبر الدنيا عنه. هذه سنة الحياة ولن تتغير ولن يتغير الناس. سمعت حكاية تستحق أن تروى وهي أن الشيخ عبدالله السليمان وزير المالية في عهد الملك عبدالعزيز، والذي استبقاه الملك سعود أيضاً في منصبه، رأى إنه آن الأوان له أن يستريح ويترك منصبه. كان الملك سعود في جده وفي يوم عودته إلى الرياض وقبل أن يتوجه إلى المطار جلس الشيخ عبدالله بين يديه وطلب منه أن يأمر جلالته بإعفاءه من منصبه لأنه لم يعد بإمكانه تحمل أعباء المسئولية المرهقة خاصة وأن مهامه كانت

تشمل أكثر بكثير من مجرد الشئون المالية. وتعاطف الملك سعود مع طلب الشيخ عبدالله وأجابه إلى طلبه وأنه سيعين الشيخ محمد سرور الصبان وزيراً للمالية بدلاً منه. يقول الذين حكوا القصة أنه لم يكن هناك آخرون عندما تقدم عبدالله السليمان بطلبه ذلك. توجه الملك إلى المطار، وهناك وقبل أن يصعد الطائرة طلب الملك الشيخ محمد سرور الصبان وهمس له بشيء قبل أن يصعد الطائرة. كان الوقت عصراً. وفي المساء وعلى عادة الشيخ عبدالله في جلسته المسائية والتي كان مجلسه فيها يغص بالزوار والساهرين الذين يتناولون العشاء يومياً على مائدته ويذبح لهم على الأقل ثلاثة ذبائح، في ذلك المساء جلس الشيخ عبدالله كعادته وانتظر الزائرين.. وانتظر ولكن لم يظهر أحد.. وكان كل بضعة دقائق يطلب من مضائفي عنده أن يلقي نظرة على الباب الخارجي والشارع لمعرفة لماذا لم يصل الزوار. وطال الانتظار ولم يصل إلا نفر قليل جداً من الخاصة واختفى الباقون. وأدرك الشيخ عبدالله الحقيقة الأبدية وأنها لم تتغير لن تتغير وأن الناس لن يتغيروا بل بالعكس أنهم أثبتوا أنهم قائمون على مبدأ أزلي لن يتغير وهو أنهم منذ الأزل وإلى أن يرث الله الأرض وما عليها يقبلون على من تقبل الدنيا عليه ويهجرون من تدبر الدنيا عنه.

كان الشيخ عبدالله السليمان هو وزير الملك بالمعني التاريخي القديم لهذه التسمية ولذا فقد كان منصبه عالياً جداً

وهاماً جداً ولا يقارن به شاغل مرتبة وزير في أيامنا هذه بعد أن قسمت المهام وجرى تخصيص المسئوليات وحددت الصلاحيات. لا أدري كيف كان شعور الشيخ عبدالله وهو يقضي أول يوم في حياته بعد خروجه من المنصب. إلا أنني أعتقد أن الرجل - وهو في الواقع فحل بين الرجال - لم يفاجأ بذلك ولم يأبه له لأنه كان لديه من الحنكة والتجارب ومعرفة طبائع البشر ما جعله يبتسم لمثل ذلك السلوك الذي لا يؤذي كبار النفوس من الرجال بل هم يبسمون له بإشفاق ويتقبلون حياتهم الجديدة بما طرأ عليها من تغيير وتبديل لأنهم يدركون أنه لو دام الكرسي لأحد قبلهم لما وصل إليهم.

قد تكون هناك صدمة ما عندما تتبدل حياة إنسان من حال إلى حال. فرجل مثلاً يجلس في بيته مع زوجته وأولاده قانعاً بعمله الذي يعمله وفجأة يأتيه هاتف يخبره أنه قد عين وزيراً. وآخر يكون وزيراً إلى أن غادر مكتبه ثم يأتيه هاتف يخبره أنه لم يعد وزيراً. هذه حالات قليلة تحدث وتحدث معها الصدمات - ونحن نتكلم عنه وهي النهاية الحتمية التي لابد منها لشاغلي المناصب العليا.

أنا لم أتبوأ منصب وزير ولا نائب وزير، وكل الذي بلغته هو وظيفة الدرجة الممتازة. وحتى لو علت المرتبة فأنت عندما تكون

الرجل الثاني كما سبق وذكرت في غير مكان من هذا الاسترسال غير المشكور، أقول إذا كنت الرجل الثاني فأنت مثلك مثل أي موظف آخر عادي، لا صلاحيات ولا مسئوليات محددة ولا يحزنون على الأقل هذا ما جربته بنفسي وإذا اشتكيت فلن يسمع أحد شكواك وأنينك لأن الذي تشتكي لهم هم أيضاً مركزيون مستبدون في مناصبهم ولا يقبلون مشاركة من هم أقل منهم مرتبة في دوائرهم. ولماذا أكرر هذا القول الأن وقد سبق وقلته؟ السبب أنني حتى وأنا أشغل منصب غير ذي فعالية غالباً إلا أنه كان هناك أناس يتزلفون لي ويطلبون ودي ربما لظنهم أنني قد أستطيع أن أقدم لهم أي خدمات من أي نوع. لم أكن أطلب من أحد أن يتزلف لي أو يخطب ودي بل كنت أسرع بالإعلان لأي واحد من أولئك أنه لا توجد لدي صلاحيات ولا نفوذ لكي أساعد أحدهم في إبرام صفقة ما أو الحصول على أفضلية في مناقصة أو مزايدة أو غيرها وطالما رددت في سري بيت الشعر الذي يقول:

لا خيل عندى أهديها ولا مال

فليسعد... إن لم تسعد الحال

لم أكن طبعاً ولن أصبح يوماً ما ضد مساعدة الآخرين الذين أرى أنهم يحتاجون إلى مساعدة أو وساطة للحصول على

حق لهم أو خدمة هم بحاجة إليها. ولقد كتبت مقالة ذات مرة عن الواسطة قلت فيها أنني أرحب بالوساطة التي أساعد فيها إنساناً يحتاج إلى هذه المساعدة ويشهد بعض ذوي المناصب العالية أنني طالما قصدتهم طالباً تسهيل أمر أو تقديم خدمة لمن لا يستطيعون أنفسهم الوصول أحياناً إلى أصحاب المناصب الرفيعة. ولكي لا يأخذ كلامي هذا صفة الإطلاق أقول أنني وقفت في مرات قليلة وقفات حازمة ووظفت بعض أشخاص قلائل في المراسم الملكية ولا أنس في واحدة منها أن أشيد بمساعدة ودعم سمو الأمير تركي بن عبدالله بن محمد مستشار خادم الحرمين الشريفين - ذلك الرجل الجم الأدب الغزير الثقافة فله دائماً في كل تقدير. والحق أن بعض من ساعدت بالالتحاق بالمراسم أظهر من العرفان بالجميل ما تعدى به أيام الوظيفة وبقي وفياً مظهراً لي الود والعرفان بعد تقاعدي أما بعض الآخرين وللأسف فلا يجدي الكلام عن عدم وفائهم لأنهم ربما خلقوا فاقدي فضيلة الوفاء هذه؛ وكلنا يعرف أن بعض الأشخاص يعانون من مرض لا أدري ما اسمه يجعلهم يعضون الأيادي التي تطعمهم.

*****

أنا والأصدقاء

نعيش مع الذين نحبهم وتمترج حياتنا بحياتهم ونتعود على وجودهم ونسير بدروب الحياة معهم وبقربهم، وقد تفرقنا ظروف حياتنا عنهم إلا أننا ندرك طوال الوقت أنهم قريبون منا عندما نحتاجهم لكن في كل ذلك تغيب عنا حقيقة أنه لا شيء يدوم مع أنها الأبرز في هذا الوجود.

أقول هذا القول وأنا بسبيل الكلام عن موضوع قد يعتبره البعض عادياً أو مملاً أو هو موضوع استهلك الحديث عنه ولم يعد في بؤرة اهتمام أحد: هذا الموضوع هو الصداقة. لقد تكلمت في مكان آخر من هذا الكتاب عن العلاقات التي تربط الناس بعضهم ببعض وتحدد الصلات بين الأشخاص كبيرهم وصغيرهم ودرجاتهم ومراكزهم وأهدافهم وتطلعاتهم وغير ذلك من العلاقات الإنسانية، أما ما أريد الحديث عنه الآن فهو الصلات الصادقة الحميمة الصافية الخالصة التي تجذب الناس بعضهم لبعض.

باختصار دعوني أقول أن من يحرم نعمة الصداقة والأصدقاء في عالمنا اليوم خاصة فهو محروم من شيء قد لا يعرف قيمته. نحن في شرقنا هذا نضع قيمة كبيرة للصداقة ولعل جيلي وجيل من سبقونا هم أكثر تقديراً للصداقة

وللأصدقاء. عندما يسألني أحدهم من أين أنت من المملكة، يكون جوابي عادة هو: أنا من كل أنحاء المملكة. فالأصل من القصيم والنشأة في المدينة المنورة والحياة العملية كانت ولا تزال بين جده والرياض، وأخي وأخواتي يسكنون المدينة المنورة وولدي نزار وأياد يقطنون جده أما أنا فقد اخترت بعد التقاعد أن أقضي ما بقي لي من عمر في الرياض. لماذا؟... لأنني طالما اعتبرت أن الرياض هي بلد المقر ولو أنني أمضيت شطراً كبيراً من حياتي أقيم بشكل متساو تقريباً بين الرياض وجده. والآن وبعد أن أصبحت طليقاً من قيود الوظيفة لا زلت اسكن الرياض وأفضلها على غيرها... أعتبر منزلي في الرياض هو المسكن الرئيس ولكن وأهم من المنزل هو مجموعة الأصدقاء الذي حباني الله تعالى بهم والذين أحبهم ويحبوني على الرغم من أن معظم أفراد عائلتي كما ذكرت يقيمون بين المدينة وجده. لهذا تحدثت عن موضوع الصداقة الذي قد يعتبره البعض قديماً ومستهلك ولا جديد فيه. جئت الرياض ذات صيف وصدف أن كان معظم أصدقائي خارج الرياض أو خارج المملكة لأن كان وقت الأجازات. واكتشفت شيئاً جديداً لم أكن أعرفه وهو أن البلد الذي أعيش فيه منذ سينين عديدة بدا لي وكأنه بلداً غريباً لم تطأه قدمي من قبل. الصداقة نعمة من نعم الله على بني البشر والحديث عنها حديث عن شيء أساسي وحيوي في حياة الناس.

لقد بدأت بالقول أننا عندما نحب أشخاصاً تجمعنا حياتنا بهم لا يخطر على بالنا أننا قد نفقدهم عندما لا نتوقع ذلك. قد يغادرون حياتنا والحياة كلها فجأة دون أن نكون قد استعدينا لمغادرتهم.

عندها فقط نحس بفداحة الخسارة وبأننا لم نأخذ حقنا كاملاً من صحبتهم ومحبتهم. أقول هذا القول وبذهني صديقين ممن فقدت في السنوات الماضية. أحدهما ابن خالتي السورية واسمه عبدالرحمن الصالح. لعلي لم آت كثيراً على ذكره في كتابي الأول من سيرتي الذاتية. كنا في طفولتنا وصبانا أنا وهو لا نكاد نفترق. جمع بيننا الحب والتآلف وقبل ذلك التشابه الكبير في شخصيتينا. كنا لا نتفارق إلا إذا أجبرنا الأهل على القيام بعمل ما وقد تحدثت عن نوع الأعمال التي كان علينا القيام بها والتي كانت تتطلبها الحياة القاسية في تلك القرية (القريتين) في ذلك الزمن البعيد. وإذا كنت أعتبر أن حياتي كانت قاسية وكان مطلوباً مني أن أقوم بأعمال أكبر من سني وطاقتي فما كان مطلوباً من عبدالرحمن كان أكثر وأكبر بكثير مما كنت أقوم به. وكغيرنا من أبناء القرية آنذاك كان ذلك هو السائد وكان الشقاء من نصيب معظم الكبار والصغار لمواجهة قسوة الحياة. ما جمعني بعبدالرحمن هو صلة القرابة والسن، كان هو أكبر مني سناً وكان يسبق سنة بما كان

لديه من عقل واتزان وحكمة عفوية، وعندما كنت أظن أن نهاية العالم تنتهي عند الجانب الآخر من التلال المحيطة بالبلد كان عبدالرحمن يحكي عن عالم آخر كبير يعيش الناس فيه حياة أكثر غنى وحضارة مما نعيشه نحن. كان حيكماً صغيراً وكان يحلم دائماً في أن حياته لا يمكن أن تستمر هكذا تعباً وشقاءً. كان شاعراً حتى ولو لم يقل شعراً وإنما شعره كان في خيالاته التي تشطح بعيداً عن حدود واقعه تأخذه من عالمه المحدود إلى آفاق أكثر اتساعاً وأثارة، وكان فوق ذلك موسيقياً! درب نفسه على الربابة - الآلة الوحيدة التي كانت معروفة بالقريتين - حتى أصبح من أمهر الناس في العزف عليها. ولم يكن قوي البنية ولذا فقد كان دائماً يبدو عليه التعب والإرهاق من جراء الأعمال الشاقة التي كان عليه أن يؤديها مع أخوته الأكبر منه، كان هو أصغر أخوانه سناً وكانوا ثلاثة. ولكن لأن الحياة في القرية والريف تتطلب دوماً العمل الشاق الذي لا يرحم ضعف أو يجامل روحاً شفافة فقد عقد الشقاء مع عبدالرحمن حلفاً كان للشقاء فيه اليد العليا. حكى لي ذات مرة وقد زرت القريتين بعد مضي سنين عديده أنه كان أحياناً يضطر إلى العمل طوال ساعات النهار وجزءاً من الليل لدرجة أنه كان يسير وراء الحمار المحمل بالأثقال وهو نائم!! ألم أقل أن الحياة في الريف وخاصة في تلك الأيام كانت قاسية لا ترحم.

هل تذكرون قصة المرأة التي كانت مع زوجها يرعيان أغنام ومواشي العائلة وما كانا يعانيان من أقامتهما في البراري ومن تحملهما لبرد الشتاء القارس وتقلبات المناخ ومن تنقلهما الدائم خلف مواشيهم ومن شظف العيش عامة؟ لقد كانت تلك المرأة زوجة عبدالرحمن، وهي في الوقت نفسه أيضاً ابنة خالي محمد الفهد المحجل. لقد كانت هي أيضاً امرأة عظيمة - تحملت ما لم تتحمله امرأة - لكنها الأن والحمد لله تنظر إلى كل ذلك وقد أصبح خلفها بعد أن كبر الأولاد ونجحوا في أعمالهم المختلفة وأراحوا أمهم التي لم يعد لها من عمل الآن إلا أن تأمر وتنهى على أولادها وزوجاتهم وأحفادها العديدين - وما شاء الله كان.

طلب مني عبدالرحمن ذات مرة أن أحصل له على فيزا عمل في المملكة وحصلت له على الفيزا وقدم إلى المملكة واستضفته في بيتي ووجدت له عملاً. لكنه لم يمكث طويلاً إذ سرعان ما أضناه الحنين إلى القريتين! وحب الوطن من الإيمان مهما تقسو الحياة علينا ومهما قد نعاني من شقاء وعذاب في وطننا يبقى وطننا هو المكان الذي لا يعادله مكان في الدينا، ورجع عبدالرحمن إلى القريتين وتنفس الصعداء بعد أن مكث أسابيع قليلة في المملكة بكى خلالها كثيراً عندما كان يخلو إلى نفسه في الغرفة التي خصصتها له في بيتي!

ذهبت مرة إلى القريتين - وقليلاً ما كنت أذهب - وطبعاً أحل ضيفاً في منزله. كانت قد مرت سنين عديدة وقد هرمنا كلنا وبان التعب والإرهاق على عبدالرحمن وفقد جزءاً كبيراً من حاسة السمع. لم أمكث للأسف إلا بضع ساعات في القريتين إذ كنت في طريقي إلى سفر آخر خارج سوريا. تحدثنا بضع ساعات وحان وقت رحيلي. ودعته وتساءلت في نفسي أن كنت سأراه مرة أخرى. ولم تمضى إلا سنة بعدها وجاءني النبأ أن عبدالرحمن قد مات! بكيت ولكن تألمت أكثر من البكاء وتمنيت أن لو كنت في تلك السفرة الأخيرة مكثت معه بعض الوقت، ولكن لم ينفع ندمي. لا زلت أفقد عبدالرحمن وأترحم عليه ولا زالت القريتين وستبقى خالية من أهم إنسان كان يشدني إليها.

المدينة المنورة هي المدينة التي عبرت من خلال حرمها ومن عبق شوارعها القديمة ودكاكينها البسيطة وأزقتها الترابية - هي التي عبرت من خلال كل ذلك إلى سني الصبا المبكر ثم سن الشباب حيث يبدأ الوعي ويتشكل وتبدأ ملامح الشخصية تتكون هناك في المدرسة المتوسطة ثم الثانوية. بدأت صداقات راسخة لم تتغير مع مر الأيام. هناك ترسخت صداقتي مع محمد الخربوش رحمه الله الذي أصبح فيما بعد زوج أختى الصغرى أم خالد الخربوش. كانت نشأة محمد تشبه إلى حد

ما نشأتي إذ هو أيضاً فقد أباه صغيراً وعانى من اليتم المبكر وكان يرعاه أخاه الأكبر الشيخ عبدالله الخربوش رحمه الله العالم والمدرس للفقه في مدارس المدينة. ابتدأت صلتي مع محمد ونحن في أواخر سني الدراسة الإبتدائية ثم سرعان ما افترقت بنا الطرق إذ التحق هو بالمدرسة العسكرية ليتخرج ضابطاً بينما واصلت أنا الدراسة الأكاديمية. وتمر الأيام وتزوج محمد من أختى وكنت ما زلت أدرس في جامعة القاهرة بمصر. تنقل محمد في مناطق مختلفة في المملكة واستقر لفترة طويلة في الرياض وهناك تعمقت الصلة والصداقة. إن كان المثل الذي يقول رب أخ لك لم تلده أمك يشك في صدقه فإن علاقتي بمحمد تؤكد بما لا يترك مجالاً لشك أن المثل صحيح. يتكلم الناس حين يزوجون بناتهم أنهم لم يخسروا بنتاً وإنما كسبوا ابناً وهذا كان ينطبق تمام الانطباق على علاقتنا بمحمد. كنت فعلاً أردد لنفسي دائماً أن أمي ولدت أخا لي هو صالح ولكن الله رزقني بأخ كان هو محمد الخربوش كان بمفرده مجموعة رجال فهو الزوج المحب الوفي لشقيقتي والأخ الحبيب لنا نحن أخوان وأخوات زوجته والابن البار بأمي رحمها الله والساعد والمعين للعائلة كلها. كان بالاختصار فرداً من العائلة بكل ما تحمل الكلمة. في الرياض لم نكن نفترق توطدت العلاقة حتى أصبح أحدنا لا يفترق عن الآخر إلا للعمل.

تشاجر ذات مرة مع زوجته أختي أم خالد - كما يحصل عادة بين أي زوجين - ويظهر أن الشجار كان أكثر حدة من المعتاد فهددت أم خالد أن تهاتفني وتطلب مني أن آتي لأصحبها إلى منزلي لأنها لم تعد تطيق كما ظنت وقتها أن تستمر بالعيش مع هذا الزوج الذي كان لا يهنأ له طعام إلا إذا شاركه فيه ضيف أو صديق. وكان هذا سبب الخناق إذ أن محمد لا يتردد في دعوة من يراه مرشحاً لمشاركته الطعام في أي وقت من النهار أو الليل بغض النظر عما إذا كانت زوجته مستعدة لذلك أم لا. واحتدم الشجار في هذه المرة وأصرت أختي على أن آتي لأخرجها من بيتها. تحكي لي هي الأن حيث نسيت أنا الحكاية كلها. تقول: «حضرت نفسي لأذهب معك غير أنني فوجئت عندما وصلت بيتنا أنك ومحمد سلمتما على بعضكما بحرارة كالعادة ولم تمضى دقائق إلا وأنا أسمع ضحككما عالياً، وبعد دقائق أخرى طلبتما العشاء وجلست أنا أحضر العشاء وأضرب كفاً بكف على حظي الذي جعل أخي يقف مع زوجي ضدي...».

لم يكن من السهل على أحد وخاصة أخو زوجة محمد أن يزعل من أبي خالد رحمه الله فقد كانت السماحة والطيبة كلها تتجسد في ذلك الإنسان الذي غادرنا إلى عالم الخلد وترك أطيب الأثر وأبقاه إن شاء الله.

كنت أنا ضيفه الدائم لمدد طويلة عندما عملت في التفتيش بوزارة المعارف وعندما كنت أجيء إلى المملكة في فترات الأجازة أثناء دراستي في الخارج. ومحمد رحمه الله ينتمي مثل معظم جيله إلى نوع من الرجال بدأ الآن للأسف في التلاشي. جيل حافظ على كل صفات الرجولة الحقة من نبل وكرم وصدق وحب الخير للناس ومساعدة المحتاج وأهم من كل ذلك التواضع وإنكار الذات. وإذا كان محمد يساعد كل من يطلب المساعدة منه وهو على رأس العمل فقد ازداد حجم أقباله على عمل الخير أضعافاً مضاعفة بعد أن تقاعد. كان عضوا بارزاً في جمعية البر بالمدينة المنورة وكان لا يتردد ولا يتحرج من أن يحمل على كتفه وهو قد تخطى الستين من العمر - يحمل أكياس وصناديق الطعام ويوصلها بنفسه إلى مستحقيها.

ولا أزال إلى اليوم وسوف أبقى إلى ما شاء الله أجد غصة في حلقي وربما أذرف دمعة في كل مرة أقبل على المدينة المنورة وأنا أعلم أن محمد لن يكون في استقبالي ولن نسهر معاً ولن نتسامر ونضحك معا. لقد انتهى كل ذلك ولكني أمني نفسي بعون الله ورحمته أن أجتمع به في جنة الخلد مع الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

*****

تكلمت عن بعض أحبائي، الذين أختارهم الله تعالى إلى جواره وأتكلم الأن عن أحبائي الذين ما زالوا على قيد الحياة ويأتي في مقدمتهم أخي صالح أطال الله عمره. صالح طبعاً كان هو المحرك الرئيسى الذي هندس عودتنا من سوريا إلى المملكة وفي الوقت المناسب إذ لو تأخرت العودة مثلاً لضاعت علي فرصة مواصلة تعليمي نهائياً. لكن الشيء العجيب الذي من أجله أطرق الموضوع الآن - وبالمناسبة أحاول أن أكون حذراً من أن أكرر نفسي وأكرر ما قلته في كتابي السيرة الأول - أقول أطرق الموضوع الآن لأحكي عن ظاهرة غريبة عن صالح، وهي حبه بل عشقه للقريتين، لم أعرف أحداً من قبل يحمل هذه الكمية من الحب لبلد كما يحمل صالح من حب للقريتين. كل قلبه وعقله ووجدانه متعلقة بهذه البلدة التي لم تتغير كثيراً من حين تركناها. لا يجد فرصة إلا ويسرع إلى أحضان بلده الحبيب. زوجة صالح الأولى كانت من القريتين وقد توفيت رحمها الله؛ تركت له البنين والبنات الذين والحمد لله يعيشون حياة سعيدة في مواقعهم المختلفة وأصر صالح بعد وفاة زوجته الأولى أن تكون زوجته الثانية من القريتين أيضاً والأسباب طبعاً معروفة.

أردت ذات سنة أن أبعد تفكيره عن زيارة القريتين السنوية التي ينتظرها بفارغ الصبر. خططت لقضاء أجازة معه ومعنا

زوجتينا. كانت أجازة راقية إن جاز هذا التعبير، فقد بدأنا باليونان وقد أكرمنا رجل أعمال يوناني كانت له أعمال في المملكة. كان الرجل كريماً وخصص لنا يختاً نجوب فيه جزر اليونان وبحارها الجميلة الصافية. كان اليخت مجهزا بطاقم كامل من طباخ وسفرجي وملاحين وكان به غرف نوم تكفينا نحن الأربعة. كانت ببساطة أياماً ممتعه قضيناها نجوب الجزر اليونانية ونرسو حيثما أردنا - وبالإختصار عشنا كما يعيش الأرستقراطيون. ثم من اليونان طرنا إلى المغرب، ضيوفاً على الملك الراحل الحسن الثاني؛ كانت تعليمات الملك لمسئولي المراسم أن يفعلوا كل ما بإمكانهم ليجعلوا أقامتنا مريحة. ولم يقصر الجماعة في تنفيذ أوامر الملك. كان عملاء الملك - وهؤلاء مثل محافظي المقاطعات في بلاد أخرى - كانوا يجهدون أنفسهم بتقديم كل ما يجعل أقامتنا ممتعة. وبلاد المغرب بالمناسبة من أجمل بلاد الدنيا إذا عرف السائح كيف يختار الأماكن - ولا أتكلم عن بعض السائحين الذين يقصدون الدار البيضاء ويقضوا عطلهم يتسكعون في شوارعها.

إن مدنا مثل فاس ومكناس وتطوان وأغادير ومراكش والرباط نفسها من أجمل بلاد الدنيا. وما يميز المدن والحياة المغربية هو أنه لا تزال تشاهد فيها نمط الحياة الإجتماعية

القديمة. يعني في فاس مثلاً كنا نرى الصبيان وهم يحملون على رؤسهم أطباقاً من الخشب وقد رصت فوقها أقراص العجين ذاهبون بها إلى الأفران لخبزها - تماماً كما كنا نفعل في المدينة المنورة منذ زمن انتهى للأسف ولن يعود. ذهبوا بنا إلى غابة من الآرز قرب أفران، إنها أجمل منتزة رأيته في حياتي - أشجار الأرز العملاقة والبساط الأخضر الممتد تحتها إلى ما لا نهاية - وهناك عرفت من مرشدنا أن أرز لبنان جاء أصلاً من المغرب! ولا غرابة في ذلك فالغابة كانت شاسعة واسعة وتزدحم بأشجار الأرز. لقد رأينا أرزه واحدة يحتاج جذعها إلى خمسة وعشرين رجلاً ليحيطوا به!!

من المغرب سافرنا إلى إسبانيا عبر مضيق جبل طارق وكنت وقتها أمتلك شقة في ماربيلا عندما كانت ماربيلا هي «الموضة» المكتسحة في تلك الأيام. أعترف أن زيارة ماربيلا كانت هي الأكثر تواضعاً في رحلتنا تلك إذ لم نكن ضيوفا على مليونير يوناني ولا على ملك عربي! لكنني بالرغم من ذلك كنت أحس بالزهو والفخر أنني وفرت لصالح وزوجته وطبعاً لي وزوجتي رحلة ممتعة راقية. وبعد أن استقرينا في ماربيلا أردت أن أسمع بعض المديح وبعض عبارات الشكر أو حتى أسمع صالح يعبر عن رضائه برحلتنا تلك. سألته: «ها يا صالح، ما

رأيك في سفريتنا هذه - إن شاء الله انبسطت»؟ وبدلاً من أسمع الجواب الذي كنت أتوقعه وهو التعبير عن سروره البالغ أجابي بشكل تلقائي سريع: «والله عندي القريتين أحسن ألف مرة من كل الأماكن التي ذهبنا إليها وكل الذي رأيناه وعشناه»!!

تكلمت كثيراً عن القريتين ولا أريد أن أكرر هنا ما قلته، لكنني أقول فقط أن القريتين هذه لم تعد إلا ذكرى مما كانت. اختفت الأنهار والجداول منها واختفت بالتالي الأشجار والكروم وأشجار الفاكهة ولم يعد فيها إلا شوارع ترابية تذروها الرياح مما يجبر الزائر على الإسراع للإغتسال كلما سار في شوارعها التي لا يزال معظمها ترابياً. وبقدر ما أن أهل القريتين طيبين وكرماء واجتماعيين من الدرجة الأولى إلا أن ما أكرهه فيهم هو أن شبابهم لم يتركوا طائراً يطير في هذه البلدة وحولها إلا واصطادوه. لقد أصبحت بلدتهم ميتة. لا تسمع فيها صوت عصفور - وأحب أن أكرر هنا أن الله تعالى عندما خلق هذه الدنيا وبث فيها ناسها قدر لكل شيء دوره وكل شيء كان بحساب دقيق. فمثلاً العصافير تأكل الديدان التي تضر المزروعات وخاصة تضر شجيرات دوالي العنب فعندما اختفت العصافير عاثت الديدان بأشجار الكروم فقتلتها. صاروا هناك يزرعون بعض عيدان شجرة الكرمة التي تتصف بمرارتها لعل وعسى أن تعيش. ولا زالوا يصطادون مئات العصافير ويبيعونها

للمطاعم في لبنان. أزور لبنان في أوقات متفرقة وأرفض تناول العصافير فيها احتجاجاً مني على الصيد الجائر لتلك الطيور الصغيرة. ولكن كما يقول المثل: «من داري عن فطيمة بسوق الغزل». لا أزال أنا أيضاً أزور القريتين وأحبها وأحب أهلها لكنني لا أستطيع المكث فيها أكثر من بضعة أيام ريثما أقابل من بقي حياً من أصدقاء الصبا إذ أن القريتين التي ولدت وترعرت فيها لم يبق منها شيء الآن. وقد تعبت وأنا أدعوهم أن يكفوا عن الصيد الجائر ولكن ما من يسمع. لقد آذوا أنفسهم والنتيجة أنهم فقدوا مقومات معيشتهم التي كانوا عليها والتي تعتمد بعد الله تعالى على الزراعة. طبعاً الجفاف ظاهرة طبيعية عالمية وقد جفت أنهار وجداول وعيون الماء التي كانت تكثر في القريتين كما جفت أنهار وينابيع وبحيرات كثيرة حول العالم وللأسف الشديد زارنا ذات مرة الرئيس السوري بشار الأسد بعد فترة وجيزة من تقلده منصب الرئاسة خلفاً لوالده الراحل الرئيس حافظ الأسد. كان كتابي الأول «ما لم تقله الوظيفة» قد ظهر قبل فترة وجيزه، وعندما صعدت برفقة سمو الأمير سلمان أمير منطقة الرياض لمرافقة الرئيس بشار إلى جناحه في قصر الضيافة قال الأمير للرئيس هذا منصور الخريجي وهو له صلة بكم إذا أن والدته سورية. وقد أصدر حديثاً كتاباً عن حياته وبه جزء كبير عن بلدة القريتين وهي بلدة والدته التي ولديها أيضاً.

أثار ذلك اهتمام الرئيس بشار وطلب نسخة من الكتاب. أحضرته له في اليوم التالي وكانت فرصة أن أتحدث معه قليلاً ولم أضع الوقت إذ ذكرت له أن القريتين كانت بلدة خضراء غنية بأشجارها وفواكها ومياهها وأنها الآن أصبحت تعاني من الجفاف وتمنيت على الرئيس أن يفعل شيئاً تجاه مكافحة تصحر البلدة. أجابني أن التصحر يغزو الأن كثيراً من المناطق في سوريا وغيرها، وليدلل على ذلك قال أنه في شمال سوريا بلدة يقال لها البحيرة. سميت كذلك لأنه كان بها بحيرة مياة عذبة كبيرة. إلا أنها الآن جفت وأصبح الماء ينقل للبحيرة في صهاريج محمولة! لكنه قال أنه إن شاء الله يبذل هو وحكومته ما يستطيعون لمعالجة الجفاف.

يقال عن من يحب إنساناً أو شيئاً لا يستحق ينظر الآخرين ذلك الحب إن المحبة من الله. وهذا ينطبق على الأخ صالح لأنك لو بحثت عن أي مبررات لحب القريتين فلن تجدها. فلا فنادق ولا مطاعم ولا منتزهات اللهم إلا ما بقي من بقع خضراء من الزمن القديم، لكن فيها شيئاً يصعب على غير المحب - والحب أعمى كما تعرفون - أن يدركه وهو هواء القريتين المنعش الصافي الخالي من ملوثات المدن التي أصبحت تشكل الأخطار الكبيرة على ساكنيها. أنا أيضاً لا أذكر

أنني أستنشق أحلى ولا أنقى من هواء القريتين خاصة إذا لم يجلب من بعض ذرات التراب. وأكبر مظاهر توسيع الصدر في هذه البلدة هو أن يجتمع شبابها على دكة أمام دكان أو منزل يتناولون القهوة والشاى ويتحدثون أحاديث لا تنتهي! ولا تظن أن مثل هذا النمط المعيشي هو قصر على القريتين، كلا أنه مظهر حياة في كل القرى والبلدات السورية بدون استثناء تقريباً . فقد سلكت طرقها عديدة من دمشق أو حمص إلى القريتين ولم أمر في أزقات وطرق تلك القرى والبلدات إذا كان الوقت عصراً أو مساء إلا وأجد الرجال والنساء مجتمعين أمام بيوتهم أو دكاكينهم الصغيرة يسمرون ويسولفون.

ولا أزال أذكركم كنت وأنا صغيراً لا يتعدى عمرى بضع سنين أبكي أمام والدتي وهي تجلس أمام باب دارنا مع جاراتها وصديقاتها، أبكي لكي تدخل البيت وكأن بيتنا كان قصراً منيفاً ولم يكن غرفة واحدة تلفها العتمة كما يذكر الذين قرأوا كتابي السيرة.

عندما وحد الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود - رحمه الله - هذه البلاد حكمها بالشريعة الإسلامية وجعل القرآن دستورها ونشر فيها العدل بعد أن كانت الفوضى سائدة والقانون مغيب والشريعة السائدة هي شريعة الأقوى. وعرف أهل البلاد أنه بمجئ الملك عبدالعزيز انتهى زمن الفلتان الأمني

وحل محله الأمن والأمان وترسخت أسس العدالة وأصبح الناس يتقبلون حكم الشريعة الغراء ويتعاملون بموجب النظام الذي شرعه الله في كتابه الكريم وثبته الملك عبدالعزيز في مملكته الفتية. وعاش الناس عهوداً طويلة ولا زالوا ولله الحمد يعيشون ويتصرفون في حياتهم حسب ما تمليه عليهم الشريعة الإسلامية. وسن الملك عبدالعزيز كثيراً من السنن الحسنة منها حرصه على البقاء قريباً من أبناء وطنه ليس فقط من خلال ما أقام من مؤسسات حكومية مما تتطلبه الحياة الحديثة، بل أيضاً حرص على أن يبقى على اتصال شخصي بمواطنيه من خلال جلساته ومجالسه المفتوحة دائماً. وقد سار أبناؤه على سنته الحسنة تلك. ألا إن الأوضاع الآن أصبحت تختلف عن الأوضاع التي كانت سائدة أيام الملك عبدالعزيز؛ تغير العالم عما كان عليه منذ مائة عام. ظهرت تيارات كثيرة وأفكار كثيرة ونظريات متنوعة، كما تغيرت نفوس الناس أيضاً ولم يعودوا كما كانوا أو كما كان آباؤهم وأجدادهم. نعم اختلفت النفوس وأصبحنا نحن المخضرمين مثلاً نبكي على الزمن الماضي الجميل عندما كانت النفوس نقية بسيطة صادقة نزيهة تقبل بما قدر الله لها من رزق وتشكر الله عليه. كان الناس في الماضي يتعاملون ويعقدون صفقاتهم مثلاً بالكلمة إذ كان للكلمة مكانة عند الرجل وكان الرجال يفضلون الموت على الحنث

بكلمة أو أي سلوك لا يليق بالرجال. حتى مجلس الملك عبدالعزيز كان الحديث فيها كما يخبرنا من حضروها يخوض في الشئون العامة التي تهم المملكة ومجتمعها كله.

سار الملوك والأمراء من آل سعود على نهج المؤسس الكبير، وفتحوا أبواب بيوتهم لأبناء الشعب وبقي المتواصل سنة إلا أن الأمور بدأت تختلف تدريجياً - على الأقل في بعض المجالس، إذ بدلاً من أن يتركز الحديث حول الشأن العام الذي يهم البلد والمواطنين جميعاً أصبح بعض الأشخاص يشغل المجالس المفتوحة بمشاكله الشخصية ويسعى للحصول على منفعة خاصة. قد يقول قائل أن مجالس الحكام على مدى تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده كانت مناسبات لبعض من يسعون إلى فائدة خاصة أما بالطلب المباشر أو بإلتقاء شعر المديح كما كان يحصل في الماضي وفي الحاضر أحياناً.

ونحن نقول أن التغيير والتطور هما سنة الحياة وأنه مع النمو السكاني إلى الملايين العديدة لم يعد يجدي في مجالس الحكام بحث أمور فردية وأن هذه المجالس يجب أن تعقد الأن ليتباحث الحاكم مع أبناء وطنه فيما ينفع البلد والمواطنين جميعاً وليس لمصلحة خاصة صغيرة قد لا تكون أكثر من شيء بسيط يمكن أن يتحقق بواسطة مكاتب وموظفين يخصصون

لهذه الأغراض الشخصية. أن مجلس الحاكم له أهميته القصوى وهو يقوم مقام البرلمانات في مفهوم الديموقراطية الغربي؛ أن مثل هذا المجلس ينبغي أن تكون - وهو المقصود أصلاً - مناسبة لتبادل الآراء والنقاش بين الحاكم والمحكوم ويجب أن يكون الهدف هو المصلحة العامة. فالمجلس يضم التاجر ورجل الأعمال ورجل الصناعة والمثقف العام والاقتصادي - وهؤلاء لو تترك لهم الفرصة للتباحث في الشئون العامة للبلد كل فيما يحسن الحديث حوله لكانت هذه المجالس أتت بفائدة أكبر بكثير مما يحصل فيها في الواقع. إذ ما أن يصل ولى الأمر أو ولي عهده أو المسئول من الأمراء إلا ويصطف أصحاب الطلبات الخاصة الصغيرة التي تخص أصحابها فقط ويضيع الوقت وتنتهي الجلسة قبل أن تترك أي فرصة للآخرين أن يتحدثوا بشيء. نحن لا نطالب بقفل الأبواب أمام أصحاب الطلبات الخاصة بل ما نعنيه هو أن يكون لهؤلاء مكاسب مخصصة ومسؤلون معينون لتوصيل طلباتهم وشكاويهم إلى ولي الأمر، أما الجلسة العامة فيجب أن تخصص كلية للحديث في الشأن العام الذي يأتي بالفائدة لكل فئات المجتمع. وطالما فكرت عندما يحدث أحياناً أن يكون هناك ضيوف أجانب في المساء يحضرون إحدى تلك الجلسات التي تعقد مرة أو أكثر كل أسبوع، ثم يرون صفا طويلا من

أصحاب الطلبات الخاصة بأوراقهم وهم يأخذون دورهم في المثول أمام ولي الأمر لتسليمه ما يحملون من أوراق وتبادل بعض الكلمات معه. أحياناً يكون عددهم كبيراً جداً فكنت أفكر في ماذا سيظن الضيوف الأجانب عندما يروا ذلك العدد الكبير من الناس ينتظرون دورهم للمثول أمام ولي الأمر. أن ظن أولئك الأجانب أن كل هؤلاء الناس يشتكون من أمور حدثت لهم ولم يجدوا أنصافا أو حلاً لشكاويهم ممن يتولون شئونهم المختلفة يكون هناك خلل ما في عمل أولئك الموظفين الذين لم يقوموا بواجباتهم كما يجب ويفترض فيهم. أما أن كان كل أولئك المصطفين فقراء ويطلبون مساعدات خاصة وشرهات توزع عليهم فالأمر إذن يكون أكثر سوءا. أما الافتراض الثالث والأكثر احتمالا فهو أن ملوكنا وأمراءنا كرماء ولا يردون طالباً أتاهم يطلب مساعدة أو قرعة لمناسبة وغير مناسبة وبهذا تعودت فئات مجتمنا على اللجوء لمثل تلك الوسيلة للحصول على ما يمكنهم الحصول من مال بطريقة سهلة!.

وهذا كما ذكرت جزء من بقايا حضارتنا وتراثنا الذي ورثناه عن المتقدمين.

*****

عن رؤساء المراسم

تحدثت عن المركزية التي تضرب أطنابها عميقاً في الدوائر الرسمية. وأزيد الآن أن الرجل الأول في المصلحة يبقى عينيه مفتحتين ويراقب بدقة إن كان هناك ضمن مرؤسيه من يشك في أنه يهدد منصبه يوما ما. ولا أقول ذلك انتقاداً لأحد أو لوماً لأشخاص، بل أزيد أن هذا من طبائع البشر فكل إنسان منا يدافع عن نفسه وكيانه ومركزه ومصالحه وحكاية الخدمة المجردة للوطن وللدولة ما هي إلا كلمات تلوكها ألسن البعض دونما محتوى جاد فيها. يعني كيف يكون أخلاص إنسان ما لمصلحة العمل فقط وهو يعمل ك ل ما في وسعه لتحييد وإفشال أي زميل له يتوسم فيه تهديداً يوماً ما لمكانه: مع أن الأشخاص الذين يعملون تحت إدارته هم أيضاً يساهمون مع الرئيس في إنجاح العمل والقيام بما تتطلبه مواقعهم. ويظهر أنني كنت طوال سنين خدمتي مصدر تهديد للرؤساء - على الأقل هذا ما أعتقدوه - ولهذا فقد كنت دوماً في مرمى سهامهم كنت مثلاً أسافر مع الملك فهد رحمه الله عندما كان ولياً للعهد. وكان الرئيس يرفض رفضاً قاطعاً أرسال أي أحد من الزملاء لمساعدتي - كنت أقوم بكل العمل المطلوب بمفردي وهو عمل متعدد الجوانب والمسئوليات يدخل ضمنه ترتيب

سكن الوفد وترتيب سياراتهم والإشراف على برنامج الزيارة بأكمله وتوزيع الهدايا واستقبال الهدايا من الجانب الآخر والإشراف الكامل على راحة الوفد من سكن وغيره وبالاحتصار إدارة الرحلة من الألف إلى الياء. كنت أستعين طبعاً بالإخوان من السفارات السعودية وكنت أجد عندهم دائماً العزيمة الكريمة. أما معظم أعضاء الوفد المرافق في تلك الرحلات فكنت للأسف لا أجد عن دأغلبهم إلا نظرات الشماته وأحياناً المساهمة في جعل مهمتي أصعب. إن من طبائع بعض الناس أنهم يتلذذون بمشاهدة علامات الحيرة والألم على وجوه الآخرين.

*****

لست مقطوعاً من شجرة

يبادرني كثير من الأصدقاء والمعارف عندما يروني - بالقول أنني أصبحت الآن بعد التقاعد حراً طليقاً أعيش كما أشاء، أسهر، أسافر، يعني ذهبت كل قيود الوظيفة مع الخروج من الوظيفة ولم يبق إلا أن أعوض ما فاتني من متع الحياة المسموحة. ويفاجأ هؤلاء الأصدقاء ببقائي لمدد طويلة في الرياض أو جده وأنني لم أسارع إلى ركوب الجو والبحر وكل وسائل السفر أسوح في بلاد الله الواسعة المتنوعة الحضارات والثقافات والبيئات أغرف كما يحلو لي من المعرفة ومن حضارة الآخرين وأطلع على عادات وطرق معيشة عباد الله في أنحاء الكرة الأرضية، وأمتع نفسي بالغريب المجهول أو هرب على الأقل في الصيف من حر الرياض ورطوبة جده - وجوابي على تساؤلات واستغراب الأخوان والمحبين أنني أتمني كل ذلك، ولكن - وآه من لكن هذه. ودعوني أشرح قليلاً.

كل واحد منا يلجأ أحياناً إلى تخيلات وتصورات يعيشها للحظات ينس فيها واقعه خاصة إذا كان ذلك الواقع ليس كما يحب دائماً. وقل أن تجد من الناس من هو راض كل الرضا من واقعه، لابد وأن هناك شيئاً ما غير موجود. وعندما تكون

الرغبة في ذلك الشيء الغير موجود قوية عندها تبدأ مرحلة التمني التي قد تدخل صاحبها في شيء من الهذيان كأن يتمنى مثلاً أن لو كان حراً طليقاً وحيداً لا يربطه رابط بأحد من البشر. يعني مقطوع من شجرة. وقبل أن يثور القارئ على هذا لهذيان الذي يصاب به الإنسان بين فترة وأخرى. وخاصة في الأزمات النفسية! وقبل أن يبدأ اللوم والتقريع وما قد يتبعه من خيبة أمل في شخصي المتواضع - أرجو أن لا تحصل - أسرع فأقول أن مثل هذه التخيلات تنتابني أيضاً بصفتي واحد من الناس. نصاب أحياناً بإحباط أو لحظة حزن ونترك لخيالنا العنان يبدل ذلك الحزن بفرح - نحقق هذا باللجوء إلى الخيال الواسع وما يسمى أحلام اليقظة، نلجأ إليها لنتقي الألم الذي يسببه لا يأتي أحياناً حسب ما نهوى. وأنا لست أبدا مقطوعاً من شجرة ولا أتمنى ذلك، بل أنني والحمد لله أرى نفسي شجرة كبيرة تعيش وسط غابة من الأشجار الصغيرة والكبيرة التي تحيط بها، تتشابك أغصانها وتحتضن بعضها بعضاً وتتفيء ظلال بعضها البعض وتعطي ثمارها يانعة. فكيف والحال هذه يمكن لي أن أنسى كل هذا وأتخلى عن كل هذا وأضرب في الأرض شرقاً وغرباً تاركاً ورائي تلك الخميلة التي تستظل بظلي وتمد فروعها تلمس أغصاني وتلتف حولها! نعم يخطر على بالي أحياناً أن لو كنت طليقاً حراً أروح وأجيء كما

أشاء، لا مسئوليات ولا واجبات ولا التزامات ولكن كيف يكون حراً من ينوء بحمل ليس شخصية واحدة فقط بل عدة شخصيات هي شخصية الزوج والأب والجد والأخ فأي من تلك الشخصيات هي التي ترمي عن كاهلها ثقل المسئولية وتنطلق تسعى وراء متعتها ولهوها ولو البريء متجاهله أو متناسية كل أولئك الذين يلوذون بها؟ وهكذا ترون أن الإنفكاك من قيود الوظيفة هو انفكاك من قيد واحد فقط أما القيود الأخرى فليس هناك للأسف انفكاكاً منها، فهي قيود أبدية!

ثم من هو هذا الإنسان الذي يظن ولو للحظة واحدة أن الانفكاك من قيود الوظيفة هو نهاية عهد عبودية وبداية عهد حرية وانطلاق؟

إن الحياة مليئة بالمشاكل والمنغصات وليس أسوأها قيود الوظيفة أو مشاكل العمل، بل أن بعض الوظايف الرسمية لها سحرها ووجاهتها التي يتمنى الكثيرون أن ينالوها؛ كما أن للعمل رونقه وتحدياته. وكلنا نشتكي من كلا الموقعين ولكن لا نكون صادقين دوما. الحياة مليئة بالمشاكل المتنوعة والمنغصات ولا نكاد نخلص من مشكلة أو قضية إلا وتبرز لنا قضية أخرى أكثر تعقيداً وأصعب على الحل. وحيث أن هذه الصفحات من الكتابة هي بشكل فضفاض استكمالات لما احتواه كتابي «ما لم

تقله الوظيفة» فإنني ملزم بأن أذكر فيه ما ألاقيه من عنت ومعاناة في حياتي بعد تقاعدي عن العمل الحكومي. كنت أتمنى وكنت أتوقع أن تكون حياتي سهلة هينة بعد أن أديت ما استطعت أن أؤديه من خدمة لبلدي وأهلي وأن أنعم بعد ذلك بحياة هائلة سهلة لا كدر ولا منغصات فيها. ولكن ذلك للأسف كان سراباً خادعاً.

واحدة من المنغصات مثلاً - وهي كثيرة - جاءت على شكل لم أتوقعه أبداً. فقد اشتريت قطعة أرض في جده قريبة من بيوت أبنائي حيث أرادت زوجتي أم نزار أن يكون لنا منزلاً قريباً من بيوت الأولاد. اشترينا قطعة الأرض وحصلنا على فسح بناء من البلدية المسئولة لتشييد المنزل. ولكن ما إن بدأنا العمل إلا وجاءنا مندوب من البلدية نفسها التي أصدرت الفسح، جاءنا بالأمر بأن نتوقف عن البناء لأن الأرض مملوكة لبنك محلي. أسقط في أيدينا ولا زال السقوط قائماً ولا زلنا لا نستطيع الاستحواذ على الأرض أو الحصول على النقود التي دفعناها ثمناً للأرض ولا زالت القضية ترواح مكانها وقد مضى عليها إلى كتابة هذه الكلمات أكثر من سنتين. لا بناء ولا حصول على المبلغ الذي دفعته ثمناً للأرض. ويستغرب الأخوان أنني قليل الأسفار ولم أغتنم فرصة التقاعد وأجوب الكرة الأرضية شرقها وغربها وجنوبها وشمالها. مرة أخرى أشكر

الله تعالى أنني لست مقطوعاً من شجرة كما يقول المثل الدارج - إذ حتى لو لم تكن هناك المشكلة التي ذكرتها فإنني لن أستطيع الجزم حول أي شخصية من شخصياتي العديدة هي التي تستطيع السفر والانطلاق هل هي كما ذكرت شخصية الزوج أم الأب أم الجد أم الأخ!!

وما دمت بصدد الحديث من مشكلة الأرض هذه فإنني أحب أن استرسل قليلاً عن تداعياتها وكيف بدأت ولو أنني لا أستطيع التنبؤ كيف ستنتهي. لقد كتبت مقالة نشرتها في جريدة الجزيرة حول الموضوع، وسأضمها إلى هذا الكتاب لأنها شكلت جزءاً من أحداث حياتي ومعاناتي وأضيف الآن أن الرجل الذي باعني الأرض باعها وهو يعرف تماماً أنه لا يملكها. والمحتالون من مثل هذا الرجل يتمتعون بالإضافة إلى نزعة الاحتيال بذكاء جيد. كما ذكرت سابقاً كانت الأرض مملوكة لأحد البنوك لكن بائعي كان معه صك الأرض الذي لم يلغ لتقصير في بعض الإجراءات التي كان يجب أن تتم ومنها إلغاء صكه.

جاء إلى منزلي وأذكر أنه كان على أقصى درجة من اللطف والرقة والأدب وقررت وقتها أن أتخذ من هذا الرجل صديقاً لأنه سحرني حقيقة برقته ولطفه وأدبه، ألا إنه للأسف كان

ممثلاً بارعاً ولا يلام فقد كان على وشك أن يتسلم شيكاً ضخماً قيمته مليوني ريال يأتيه عن طريق الخداع والاحتيال. هذا الرجل نفسه عندما قررت أن اكتب مقالة أشرح فيها كيف تم خداعي قررت أن أهاتفه لأخبره بما سأفعل وكانت مفاجأتي كبيرة عندما أجابني بكل وقاحة وسلاطة لسان أن بيع الأرض كان صحيحاً والصك صحيح وتحداني أن «أركب أعلى ما في خيلك». وكما ذكرت فإن أولئك المحتالين يدركون للأسف الشديد أن الإجراءات القانونية عندنا بطيئة وقد تستغرق قضية مثل قضيتي هذه سنين طويلة قبل أن تحسم يكون هو قد استفاد الفائدة الكبرى من احتياله وخداعه وأكون أنا قد تعبت وربما أيضاً توفاني الله!. وكما ذكرت فإن أمثال هذا المخادع يتمتعون بالذكاء وبالتخطيط المدروس وربما ينجح في ادعاء أنه معسر عندما تصل الأمور إلى نهاياتها ويحصل على عفو حكومي أو تدفع الدولة عنه ما سرقه!!. والأغرب من كل هذا أنه عندما أعلمته أنني سأكتب مقالة حول الموضوع أجاب بكل وقاحة أنني أستطيع أيضاً أن أذكر أسمه كاملاً وأعطاني اسمه الرباعي. وقد ندمت بعد نشر المقالة أنني لم أذكر اسمه كاملاً في مقالتي. لكن ربما أجد مناسبة أخرى لقبول تحديه ونشر اسمه كاملاً إلا أنني الأن لا أرغب أن أدنس كتابي بوضع اسمه فيه.

لقد ساقني الحديث عن المحتال الذي خدعني إلى قصة سابقة حصلت لي أيضاً. ولا أعلم أن كنت أنا فقط أعاني من مثل هذه المشاكل أو أنها - المشاكل - شيئاً موجوداً لا نملك له دفعا ويعاني منه أناس كثيرون. ما حصل منذ سنين عديدة عندما أقدمت على تشييد منزلي هنا بالرياض والذي لا زلت أعيش به؛ أن شركة ألمانية حصلت مني على عقد البناء. كان يمثل الشركة شخص ذي نفوذ يظهر أنه تسلم مبالغ مالية من الشركة التي كان لديها أيضاً عدة عقود أخرى تسلمت أقساطها الأولى قبل أن تبدأ العمل. وكيل الشركة الألمانية تسلم المبالغ واختفى فيها! ولما وجدت الشركة نفسها في موقفها الصعب جمع مديرها ومعاونيه أحمالهم واختفوا في ليل أظلم ولم يظهروا إلا في بلدهم. ولأختصر القصة ذكر لي محامياً ألمانياً له صلات ببعض الأشخاص عندنا في المملكة. اتصلت به ووكلته في القضية؛ ولم يمضى إلا شهر أو اثنان إلا وحصل لي على نقودي كاملة زائداً الفوائد المفروضة التي اكتسبتها نقودي خلال المدة التي كانت في حوزة الشركة أو وكيلها. لقد تتبع المحامون الشركة حتى دفعت ما عليها لكل زبون يتعامل معها وحتى أيضاً أفلست نهائياً وبيعت متعلقاتها وحصلت كما حصل غيري من المدعين على كامل حقوقهم زائداً الفائدة كما ذكرت. أصعب معاناة يمكن أن يعانيها إنسان هو أن يرى ماله يسلب

منه بالخداع والسرقة ولا يستطيع فعل شيء لرده ومجازاة السارق. والآن إلى المقالة التي نشرتها عن الموضوع.

وكما أن بعض الأجازات تنقطع فجأة لأسباب تتعلق بظروف العمل فإنه يحصل أحياناً أن تحدث مواقف صعبة وغريبة أثناء الأجازات دون أن يكون للعمل دور فيها. كنت ذات مرة مع أم نزار في القاهرة واقترح علي صديق مصري أن أسافر للغردقة التي كانت لا تزال في أول عهد نموها ولم تكن قد ازدهرت بعد. حثني الصديق أن أذهب إلى واحدة من القرى الناشئة في المنطقة والتي تعيد الإنسان إلى عهد البساطة وتدخله في وسط الحياة الخالية من أمراض المدنية الحديثة. ورحبت بالفكرة وأقنعت أم نزار بإننا جربنا الفنادق الفخمة وشربنا من متع الحياة الحديثة فلا بأس إذن من أن نعود لفترة بسيطة إلى الأيام القديمة ونعيش الحياة كما كانت قبل أن تشوهها المخترعات الحديثة. وافقت أمر نزار على الفكرة ولكن قطعاً على مضض فهي ليست مغرمة بالمغامرات وركوب المجهول. وكان يوما سنذكره أنا وهي طيلة حياتنا.

كان وقت سفر الطائرة المصرية من القاهرة إلى الغردقة وقت الظهيرة ولم يتسن لنا أن نتناول غداء ممتازا كانت أعدته لنا خالتي (حماتي) رحمها الله، وغادرنا والجوع يقرص

أمعاءنا. لم يكن على الطائرة أي طعام لأن الرحلة قصيرة! وصلنا الغردقة وتوجهنا إلى القرية المذكورة. وصلنا بعد المغرب وكان نظام الإقامة في القرية يشبه نظام المعسكرات. وجبات الطعام محددة المواعيد بدقة ونحن وصلنا بعد الانتهاء من العشاء الذي يتناولونه بعد المغرب مباشرة. كان الجوع قد بلغ منا وطلبنا بعض الطعام وكان هناك شابان هما المسئولين عن الإدارة. قالا أن العشاء انتهى ولا يوجد أكل. شاهدت فترينه بها بعض قطع الجاتوه وقلت أعطونا شيئاً منها وكان جواب أحد الشابين أنه لا يمكن أعطاءنا أي شيء. ولم ينفع رجائي معه ولم ينفع أيضاً حث زميله له على إعطائنا قطعة جاتوه. لا حول ولا قوة إلا بالله. كان ذلك الشاب يعاملني وكأنني واحداً من أعدى أعدائه! قلت خذونا إذن إلى غرفتنا. أحضروا حماراً يجر عربة ووضعنا شنطتنا في العربة وسرنا وراء العربة والحمار. وسرنا.. وسرنا.. وسرنا! بدت المسافة وقد أرخى الليل سدوله وعم الظلام.. بدت وكأن لا نهاية له. وقفنا بضع دقائق للراحة وخلعت أم نزار حذاءها لأنه كان يغوص بقدمها في الرمال الناعمة! وبعد مسيرة مرهقة خفناها لن تنتهي وصلنا إلى غرفتنا. أسميها غرفة تجاوزا فهي كانت عبارة عن شيء صغير محاط بثلاث جدران طينيه والرابع يشكل الباب وفتحة عبارة عن شباك يرتفع عن أرض الغرفة بمقدار قدمين

وبه باب خشبي دون زجاج طبعاً. كان بالغرفة أيضاً زير ماء كبير ومغراف للشرب. ثم حمام بدائي. الشيء الوحيد الذي ينتمي إلى العصر الحديث بتلك الغرفة كان التليفون لحسن حظنا.

نسيت أن أذكر أن يوم وصولنا «المبارك» إلى القرية كان يوم بدء الألعاب الأولومبية والتي كانت في ذلك اليوم تقام في كوريا. بعد أن عجزنا أن نأخذ من ذلك الشاب الأشم أي طعام طلبنا منه أن يؤجر لنا تلفزيون نشاهد فيه الألعاب لعل المشاهدة تنسينا جوعنا ولو مؤقتا. وأيضاً رفض رفضاً باتاً متعللا أن المخزن قد قفل - مع العلم طبعاً أنه يوجد لديهم تلفزيونات لمن شاء أن يستأجر واحدا. كان مخي يغلي داخل جمجمتي لأنني كنت أحرق خلاياه بالآلاف محاولاً التذكر إن كنت قد أسأت في يوما ما وبالصدفة لذلك الشاب، إلا أنني لم أتذكر أنني رأيته أو هو شافني قط. إذن لماذا كل تلك العداوة التي أبداها، وكيف للعاملين بالقرية أن يتركوا رجلاً مثل هذا في مكان سياحي مثل هذا يحتاج قطعاً إلى كل اللطف والرقة والمعاملة الحسنة الكريمة حتى يستطيع أن يقنع أحداً بالإقامة في تلك القرية البدائية.

لا غداء ولا عشاء ولا تلفزيون ولا مكان مريح ومهما اختصرنا معنى الراحة - إذن كيف يمكن لنا الإقامة بذلك

المكان - جلسنا لدقائق في تلك الغرفة - الليل شديد الظلام والوحدة مخيفة إذ لا أحد حولنا ولا نسمع إلا تكسر موج البحر على صخور الشاطئ. ولم تستطيع أم نزار تحمل أكثر مما تحملت، فهي قد انهكت في الطريق والأن تعاني من الجوع والخوف أيضاً في غرفة شديدة العري يلفها الظلام الدامس من الخارج وتسيطر عليها وحشة مرعبة. حاولت دون أن أكون أنا مقتنعا بما أقول - أن أهون على زوجتي فقلت بنغمة لا تقنع أحداً أن صديقنا القاهري يريد لنا أن نحيا بضغة أيام حياة طبيعية بسيطة خالية من عقد ومشاكل الحياة التي ألفناها. لكنني فشلت بأن أحمل لهجتي عامل الإقناع. أخيراً لما تكلمت أم نزار وقد تهدج صوتها وكانت على وشك البكاء قالت ما هذا الذي جئت بنا إليه. أنا يستحيل أن أمضى الليل هنا. كلم الاستقبال وخليهم يرسلوا الحمار والعربة ونخرج من هذا المكان. وانصعت بلا جدال لأمرها وطلبنا العربة والحمار وحملنا شنطتنا وابتدأنا رحلة العودة إلى مكان الاستقبال. ولم تنس زوجتي أن تخلع نعليها وتحملهما بيدها وكانت مسرورة بالخروج من ذلك المكان ولم تعبأ بتعب الطريق الذي نقطعه مرة أخرى حتى وإن كانت قدميها تغوص في الرمل. لحسن الحظ كان أمام بوابة القرية تليفون أسرعت إليه وتحدثت مع صديقنا القاهري طالبا منه سرعة إيجاد فندق نذهب إليه.

كـان فندق شـيـراتـون في ذلك الوقت على مـا أظن هو الفندق الوحـيـد من الأسـمـاء الكبـيـرة الموجـودة في الغـردقـة. وأسـرع الرجل وهو صديقنا العزيز المهندس عصام عباس وهو يقهقه بصوت عال للحجز في الشيراتون. ولم تمض دقائق إلا وأخبرنا أن غرفة حجزت لنا بالشيراتون وأسرعنا إلى الفندق ودخلنا غرفة كبيرة جميلة واسعة ولأول مرة في ذلك اليوم العصيب ضاء وجه زوجتي بابتسامة عريضة وأمرت خدمة الغرف بإرسال عشاء فاخر تناولناه. وقضينا أجازة من أجمل أجازاتنا خارج المملكة.

*****

o p e i k a n d l . c o m